Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسلوك الإنساني

Bibliotheca Alexandrina
0123038

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن الكريم
والسلوك الإنساني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن الكريم
والسلوك الإنساني

محمد بهائي سليم

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإخراج الفنى : ماجدة البنا

الاشراف الفنى : عفاف توفيق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

تقـــــديم

هذا الكتاب ليس تفسيراً للقرآن الكريم كما جرى عليه مفسروه الذين تناولوا آيات خاتم كتب الله آية آية ، ففسروا ألفاظها وأهدافها ، ليكون قارئه على بينة وفهم صحيح لمقاصد هذه الآيات والحكمة الإلهية من إنزالها .

ولكنَّا فى وضعنا هذا الكتاب قد اتجهنا اتجاهاً جديداً ، إذ تناولنا فيه جوانب السلوك الإنسانى كما يجب أن يكون ، وكما أمر به العزيز الحكيم ، ربُّ العالمين .

وقد استرشدنا فى ذلك بالمناسب من آيات الله البينات التى تضمنها خاتم كتب الله ، قرآنه الكريم .

وإننا فى عالمنا المعاصر ، حيث تعددت احتياجات الإنسان وتنوعت ، وحيث تشابكت المصالح بين أفراد المجتمع الإنسانى وشعوبه ، وتعقدت الوسائل والسبل والمسالك فى رحلتنا القصيرة فى هذه الحياة الدنيا لأحوَج إلى معرفة أنفسنا على حقيقتها .

لماذا خُلقنا ؟ وما نوازعنا ورغباتنا ؟ وما أهدافنا فى هذه الحياة ؟ ، وكيف نعيش حياة إنسانية كريمة ؟ ، وما أقوم الوسائل التى يجب أن نأخذ بها فى سلوكنا وعلاقاتنا بخالقنا وبأنفسنا وبغيرنا من بنى آدم ؟ .

كل هذا تناولناه فى هذا الكتاب ، فبيّنا فيه خَلْقَ الإنسان وطبيعته البشرية ، كما تناولنا معنى الإيمان ووسائله وأهدافه فى جميع اتجاهات هذا السلوك ومظاهره من حيث الفكر والقول والعمل ، كما أراده الله لخير من امن به وبكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وكما بيّنها ، سَمَت حكمته ، أوضح بيان وأبلغ مقال فى خاتم كتبه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكل ما ينادى به البشر فى عالمنا المعاصر من مذاهب ومبادىء ومُثُل ولا يعملون بها ، قد سبق أن بيّنها العزيز الحكيم فى قرآنه الكريم . وما نُزّل هذا القرآن إلا لخير البشر ما سار عليه البشر وسلكوا صراط ربهم المستقيم . وما نُزّل هذا القرآن إلا ليبين للناس كافة فى كل زمان ومكان ، معانى الكرامة الإنسانية والمساواة بين الناس ، وكيف يعيش الإنسان فى هذه الحياة الدنيا حراً كريماً خيّراً مؤمنا تقّياً عادلاً محبا للسلام ، بعيداً عن أهواء النفس الأمّارة بالسوء ، مهتدياً فى سلوكه بتلك التعاليم والمبادىء الربانية السامية التى أوردها الله فى محكم التنزيل ، فى القرآن الكريم .

« والله ولى التوفيق »

المؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الله البينات

بسم الله الرحمن الرحيم

«وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاسْتمِعوُا له وأَنصتوُا ، لعلكم تُرْحَمُونَ»(١) .

«إنَّ هذا القرآنَ يهدى للتى هى أقومُ ويبشِّرُ المؤمنينَ الذين يعمَلونَ الصالَحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً»(٢) .

«وأنَّ هذا صراطى مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبعوُا السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون»(٣) .

«نَزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه وأنْزَلَ التّوراةَ والإنجيلَ»(٤) .

«شَرَعَ لكم من الدّين ما وَصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّينَ ولا تتفرقوا فيه كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه اللهُ يجتبى إليه من يشاءُ ، ويهدى إليه من يُنيب»(٥) .

«إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرُّوا سُجَّداً وسبَّحُوا بحمدِ ربِّهم ، وهم لا يستكبرون»(٦) .

«تتجافَى جنُوبهم عن المَضاجع يدْعُون ربّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقْناهم يُنفقون»(٧) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجِلت قلوبهُم وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون »[٨] .

« الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابها مّثانيَ تقْشعِرُّ منه جلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يُضلِلِ اللهُ فما له من هادٍ »[٩] .

« وما منع النـاس أن يؤمنوا إذْ جـاءهُمُ الهدى إلا أن قـالوا أَبَعَثَ اللهُ بشـراً رَّسولاً »[١٠]« قل لو كان فى الأرض ملائكةٌ يمشونَ مطمئنين لنزَّلْنا عليهِم من السَّماء مَلَكاً رَّسولاً »[١١] « ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر وأولئك هُمُ المُفْلِحونَ»[١٢] .

صدق الله العظيم

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ن والقَلَمِ وما يَسْطُرونَ * ما أنت بنعمةِ ربِّكَ بمجنونٍ * وإنّ لك لَأَجْرًا غير ممنونٍ * وإنّك لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ * فستُبْصرُ ويُبْصِرُونَ * بأَيِّكُمُ المفتون * إنَّ ربك هو أعلمُ بمنِ ضَلَّ عَنْ سَبيلَهِ * وهو أعلمُ بالمهتدَينَ * فلا تُطع المكذِّبينَ * **وَدّوا لوْ** تُدْهِنُ فيُدْهِنونَ * ولاتُطِعْ كُلَّ حلاَّف مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مشَّاءٍ بنَميمٍ * منَّاعٍ للخيرِ مُعْتدٍ أثيمٍ * عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ »[٤] .

صدق الله العظيم

عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :

(إنَّما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأَخْلاَقِ) * (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي) .

صدق رسول الله

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، عندما سئلت عن أخلاق الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، أنها قالت : (كان خُلُقُه القرآن) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول
الإنسان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة الإنسان لغة من أَنَس ، وفعله أَنِسَ أى اطمأن وهدأ باله وفرح ، فالإنسان إذن مصدر للإرتياح والفرح ، حتى أنه ليأنس ويطمئن بلقاء بنى جنسه .

فليعمل الإنسان بإسمه وصفته ، وليكن مصدر خير وفرح لغيره من البشر .

وليسبح باسم خالقه الذى خلقه وصوره فأحسن تصويره . وليشكر ربه إذْ زوده بالعقل الذى به يدرك ما يحس وبه يدبر أمره . وليحمد ربه الذى استخلفه على أرضه ولم يتركه عليها سدى ، بل رعاه ولحظه ورباه بما أنزل عليه من محكم التوجيه وسديد النصح فيما تضمنته كتبه السماوية وخاتمها القرآن الكريم ، وأوحى بها إلى رسله وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ .

وليكن هذا الإنسان جديرا بخلافته على الأرض ، وليعمل على عمرانها بدلا من تخريبها والإصلاح فيها بدلا من الإفساد ، مسترشدا فى كل ما يفكر أو يقول أو يعمل ، بما نزّل الله من آيات بينات .

هذا الإنسان !

الذى نسى نشأته الأولى إذْ لم يكن شيئا مذكورا ، ونسى أو تناسى الذى أنشأه ، سبحانه وتعالى ، وسواه رجلا ، وغفل عن حكمته من خلقه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الإنسان ! الذى لا يذكر من أنشأه وكيف أنشأه ونفخ فيه الروح التى بها يحيا على هذه الأرض وعليها يسعى وفيها يثوى ، ثم منها يُبعث بأمر ربه ليحشره مع الخلق أجمعين يوم الحساب العظيم .

هذا الإنسان ! الذى لا يزال يسلك من وعر المسالك ما تدفعه فيها غرائزه العمياء دفعا ، إنّ هذا الإنسان ما زال يطغى ويستكبر ويتجبر ، ويفسد فى الأرض التى استخلفه عليها خالقه ومصوره ليصلح فيها ، وينفذ فيها مشيئته التى شاءت له الخير والفلاح ، وللأرض العمران والإصلاح ، بعد أن زوّده العلى القدير ببصر يتبصر به الخير من الشر ، وبسمْع يميز به ثم يتدبر ، وفؤاد يحس به صراط ربه المستقيم ليتبعه والعوج السقيم فينأى بنفسه عنه .

هذا الإنسان !، الذى حاد عن صراط ربه المستقيم ، الذى رسمه له خالقه القدير ليسير عليه وفق تعاليم الحكيم العليم ، فعصى أمر ربه الذى :

« خَلَقَ الإنسان من نُطفةٍ فإذا هو خصيم مُبِينٌ »(١٤)

ما أحرى هذا الإنسان بذكر ربه وبالتوبة إليه وبالعودة إلى صراطه المستقيم ، بعد ذكره وشكر فضله عليه ، والسير عليه جادًّا مخلصا آمنا مؤمنا ، مستخدما فى كل هذا ما أنعم به الله عليه من سمع وبصر وفؤاد ، حتى لا تجرفه غواية إبليس اللعين عدوه المبين ، الذى يعيث فسادا فى قلب الإنسان الضعيف ، فيضل الصواب فى سيره وسريرته ويسىء إلى نفسه التى أراد الله بها الخير والفلاح للفرد وللمجتمع .

وها هى تعاليم الخالق المبدع ، البصير الخبير ، قد أودعها قرآنه المبين ، دستور البشرية الأزلى القويم ، أنزله الرحمن رحمة وهدى للناس كافة فى كل زمان ومكان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

هذا الكتاب القيّم ! الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة من شئون الدنيا والآخرة إلا وأحاط بها وأحصاها ، ولم يتعرض لمشكلة إلا وأوجد لها الحل الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهل أصدق مما جاء بآيات الخالق المبينات فى محكم تنزيله وخاتم كتبه ؟ فليرجع إليها الإنسان مؤمنا بحكمة الخالق ، ومخلصا له الدعاء ، فيتضاءل فى حضرة العلىّ الكبير ويخشع ويسلم الأمر كله له ، بدلا من المعاندة والمكابرة والتخبط ، والإمعان فى الضلال .

«إنّا هدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كفُوراً»(١٥) .

هذا الإنسان !

كيف خُلق ؟ وممّ خُلق ؟

لحكمة لا يعلمها إلا الخالق المبدع القدير العليم ، لم يخلق آدم ، أبا البشر ، من نور ولا من نار ، ولم يخلقه من صخر صلد ولا من معدن نفيس أو من حجر كريم ، بل خلقه مما هو أدنى من هذا وذاك ، خلقه من تراب وطين :

« قَالَ كَذَلِك قال ربُّك هُو عَلىّ هَيِّنٌ ، وقَدْ خَلَقتُك من قَبلُ ولم تَكُ شيئاً »(١٦) .

« إنّ مثلَ عيسى عند اللهِ كمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ من تُرابٍ ثُم قَالَ لَهُ كنْ ، فَيَكُونُ »(١٧) .

« الذى أحْسَنَ كلَّ شىءٍ خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ »(١٨) .

« إنا خَلقْناهُم منْ طينٍ لازِبٍ »(١٩) .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مَّسْنُونٍ »(٢٠) .

« خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصَالٍ كالفَخّار »(٢١) .

ولم يأبه ، سبحانه وتعالى ، لقول إبليس اللعين ، الذى أبى واستكبر حين أمره الله بالسجود لآدم :

« قال ما منعك ألاّ تسجدَ إذْ أمَرتُكَ قال أنا خيرٌ مِّنهُ خلقْتَنِى من نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ »(٢٢) .

ومن آدم الذى لم يكن شيئا مذكورا قبل أن يخلقه رب العالمين ، ومن حواء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى قطعة من نفس نوع آدم ، نَسَل الإنسانُ ، ولا يزال وسيظل يَنسِل إلى يـوم الدين ، من ماء مهين :

« ألم نخلُقكُم مِّن ماءٍ مَّهينٍ »(٢٣) .

« ألم يكُ نُطْفةً مِّن منيٍّ يُمنَى »(٢٤) .

وفى هذه النطفة أوجد العلى القدير أبسط صور الحياة وهو الحيوان المنوى الوحيد الخلية الذى يندمج فى بويضة الأنثى فيكونان العلقة :

« خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ »(٢٥) .

فإذا علمنا أن أبسط ما يتحرك على الأرض من حيوان هى الدودة التى تعيش على الأرض وتتحرك بكامل جسمها وراء طعامها ، وأنها إذا ما عثرت عـلى ما يصلح لغذائها التقمته بفمها وأدخلته فى جوفها حيث تتم عملية هضمه .

وإذا علمنا أن أبسط أنواع هذه الدودة وأدناها وأقلهـا حيلة هى العَلَقَة التى لا تجهد نفسها فى السعى بحثا عن طعامها ، بل تتطفل وتعلق بغيرها من الحيوانات وتلتصق بها لتمتص منها عصارة الحياة تامة الهضم .

إذا علمنا هذا ، تبين لنا مدى ضآلة هذا الإنسان ، وهوانه على خالقه ، ما لم يذكره ويَتقْهِ .

ويبين الخالق ، سبحانه وتعالى ، فى محكم تنزيله ، كيف يتدرج الخالق فى تخليق هذه العلقة شيئا فشيئا حتى يتمها إنسانا كامل الخلقة :

« ولقد خَلَقْنَا الانسَان من سُلاَلَةٍ مّن طين ، ثم جَعَلْنَاه نُطفةً فى قَرارٍ مَّكين ، ثم خَلَقْنَا النُّطفةَ عَلَقَة ، فخَلقْنَا العَلَقَةَ مضغةً ، فخلقْنَا المُضغةَ عظَاماً ، فكسَوْنا العِظَامَ لحماً ثم أنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخرَ فتبارَكَ اللهُ أحْسنُ الخالقين »(٢٦)

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فالنطفة هى السائل المنوى الذى ينزل من صلب الرجل إلى رحم المرأة ثم يندفع من الرحم خلال دهليز ضيق فى نهايته مبيض المرأة الذى يفرز بويضات حية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتكون كل منها من خلية واحدة فيلتصق واحد من الحيوانات المنوية بإحدى هذه البويضات ويندمج فيها فيتم ما يسمى باللقاح ثم تعود هذه البويضة الملقحة من هذا الدهليز إلى الرحم وهى تنمو وتكبر خلال هذه العودة مكونة ما يسمى بالعلقة وتلتصق هذه العلقة بجدار الرحم وتُثبّت عليه بواسطة شعيرات دقيقة تنغرس فى هذا الجدار ويتكون ما يشبه جذور النبات ، لأنها تُثبّت هذه العلقة فى جدار الرحم وتمدها بالغذاء الذى تمتصه من دماء المرأة . والعلقة فى أول أمرها لا شكل لها بل تشبه إلى حد كبير جسما هلاميا يكبر شيئا فشيئا فيتحول إلى عظام لينة (غضروفية) ثم تكسى باللحم ثم تبرز من هذا الجسم زوائد مكونة الرأس والأطراف ثم يتخلق الجسم وتتكون ملامح الجنين حتى إذا ما استكمل نموه خرج إلى نور الدنيا بشرا سويا ، والمدة بين عملية التلقيح إلى الحمل إلى الولادة حوالى تسعة أشهر فى المتوسط :

« فَتَبارَكَ الله أحسنُ الخالِقين » .

لا شك أن فى خلق الإنسان على هذا النحو ، حكمة إلهية سامية :

فهل كان من حكمة الخالق أن يبصّر الإنسان بأنه لم يكن شيئا مذكورا ، فيتضاءل بنفسه أمام قدرة خالقه وعظمته فيؤمن إيمانا مطلقا بهذه القدرة ويتقيها فيتجه إلى ربه بالعمل الصالح ويسبّح بحمده ؟ أو هل كان من حكمته ، سبحانه وتعالى ، أن يبين للإنسان كيف أن الله قد خلق آدم أبا البشر من أدنى المواد ، وخلق بنى آدم من أدنى الحيوانات ، ثم أكرم آدم ونسله فأحسن صورهم وجعلهم أرقى الكائنات التى تعيش على الأرض ، فيذكروا نعمة ربهم ويشكروا للخالق فضله ، وهو سبحانه الغنى عن العالمين ؟

لا شك أن هذا وذاك كان إعدادا للإنسان ، الذى اختاره الله من بين خلقه واستخلفه فى الأرض ، ليؤدى فيها وظيفة سامية هى تعمير الأرض بالحق والعدل ، وفق مشيئة العليم الخبير ومحكم توجيهه ، فيحمل الأمانة مخلصا ومؤمنا بقدرة خالقه ، سائرا فى فكره وقوله وعمله وفق تعاليمه التى أنزلها لخير البشر أجمعين .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فلنفْسِه ومن أسَاءَ فعلَيْها وما ربُّك بظلاَّمٍ للعَبيدِ »[٢٧]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« هو الذى جعلكم خلائفَ فى الأرضِ فمن كَفَر فَعَلَيْهِ كفرهُ ولا يَزيدُ الكافرينَ كفرُهُم عند ربهم إلا مَقْتاً ولا يَزيدُ الكافرين كُفرهُم إلا خَسَاراً »(٢٨) .

ولو شاء الخالق ، جلت قدرته ، لجعل من الملائكة خلائفه على الأرض ، ولكنه سبحانه وتعالى ، ولحكمة لا يعلمها إلا هو ، قد شرّف الإنسان فاستخلفه فى الأرض لإجراء أحكامه وتنفيذ مشيئته فى عمارتها ونشْر الخير فيها :

« وإذْ قال ربُّك للملائكةِ إنّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّمَاءَ ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونقدِّسُ لَكَ قال إنى أعلمُ ما لا تعلمونَ »(٢٩)

وإذْ سوَّى الله بين الناس فى خَلقهم واستخلافهم فى أرضه ، ما زال سبحانه وتعالى ، يمتحنهم بالبسط والمنع ، فيجعلهم درجات بعضهم فوق بعض فى القوة أو فى المال أو فى العلم ، ليرى بعد ذلك سلوكهم بما قسَمَ لهم ، ثم يجزى كل نفس بما كسبت وقدّمت :

« وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرضِ ورفع بعضَكم فوق بعضٍ درجاتٍ ليَبْلوَكم فيما آتاكم إن ربَّك سريعُ العِقابِ وإنه لغفورٌ رحيمٌ »(٣٠) .

فمنهم من اتّقى ربه واهتدى بنوره ، ومنهم من مسه الشيطان بالغرور بما آتاه الله من مال وولد وسلطان فنسى ربه وأنكر نعمته ، وظن أن ما أوتيه من نِعَم لا فضل لأحد غيره فى إتيانه ، وأن ما أوتيه دائم وخالص له لا يقدر أحد أن ينزعه منه فيتعالى على الناس ويثير حقدهم ويفسد فيهم ، فيمد الله له فى الرزق ليزداد غرورا وعتوًا وفسادا وإفسادا ، ثم يأخذه ربه أخذ عزيز مقتدر بكفره وظلمه ، وأى انتقام أشد على الإنسان من الفقر بعد الغنى ، وأى عذاب أقسى من الهوان بعد العزة والضعف بعد القوة .

فهذا قارون الذى آتاه الله من المال والسلطان ما لم يؤ تِ أحدا من البشر ، جعله مثلا فى القرآن وعبرة لمن يعتبر ، إذْ أخذه الله بغروره واستعلائه وكفره بنعمة ربه .

« إنَّ قارونَ كان من قوم موسى فبغَى عليهم وآتيناهُ مِن الكنوز ما إنَّ مفاتِحَهُ لتنوءُ بالعُصْبةِ أُولِى القوة إذْ قال له قومُهُ لا تفرحْ إنَّ الله لا يحبُّ الفَرِحِينَ »(٣١) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وابْتغِ فيما آتاك الله الدَّارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدّنيا وأحْسِنْ كما أحسَنَ الله اليك ولا تَبْغِ الفسادَ فى الأرض إنّ الله لا يحبُّ المفسِدين »(٣٢) .

« قال إنما أُوتيتهُ على عِلمٍ عندى أوَ لَم يعلمْ أنَّ الله قد أهلك مِن قَبْلِهِ من القُرونِ مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جَمْعاً ولايُسألُ عن ذنوبِهِمُ المجرمونَ »(٣٣) .

« فخسَفْنا به وبداره الأرضَ فما كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ينصرونَهُ مِن دُونِ اللهِ وما كانَ مِنَ المنتَصِرينَ »(٣٤) .

وليس المقصود بعدم فرح الإنسان حرمانه من السرور والسعادة أو أن يظل حزيناً مكتئباً ، بل المقصود به ذلك الفرح الذى يستخف صاحبه إلى عدم ذكر ربه وشكره على نعمه وتقواه ، ومظاهر هذا الشكر والحمد أن يحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه وأن يعطى للغير بعضاً مما آتاه ربه من فضل ، وألا يتخذ مما أنعم الله عليه به وسيلة للفساد والإفساد .

والمقصود بعدم سؤال المجرمين ومناقشتهم الحساب يوم القيامة ، أنهم قد أمعنوا فى الإجرام وانغمسوا فى ذنوبهم وهم على وعى تام بما يفسدون ثم لم يستغفروا ربهم ولم يتوبوا إليه ، فلا جدوى من مناقشتهم أو حسابهم يوم القيامة لأن جرائمهم وذنوبهم آخذة برقابهم ومحيطة بهم من كل جانب ، فهؤلاء سيحشرون حشراً أكيداً مع أمثالهم فى جهنم وبئس المصير .

ومَن غضب الله عليه ، صب عليه جام غضبه فى دنياه أيضا قبل آخرته ، ليكون عبرة لغيره فى الحياة الدنيا ، وهو سبحانه يأخذه أَخْذَةً لا دافع لها إلا هو العلى القدير ، وهل يستطيع مخلوقٌ أن يدفع قَدَرَ الخالق ؟

فعلى المؤمن أن يتقى ربه فيما أنعم عليه به فيقابل نِعَمَهُ بحمده وشكره والعمل بأوامره .

وعلى المؤمن التقى ألا يستخفه الفرح بما آتاه الله ويفقده رشده فيطغى بِمَا لِه ويفسد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمؤمن التقى من ظل على ثباته وإيمانه وتقوى ربه فى السراء والضراء ، ولا يصرفه سروره ولا يهزه فرحه عن ذكر الله وشكره ، ولا ينأى به الحزن والأسى عن حمده والرضا بقَدَرِه وإسلام الأمر كله له وحده..

وما يجرى على الفرد بفساده أو تقواه بما آتاه الله من بسط أو قبْض ، يجرى على الأمم ، فالأمة مجموع الأفراد على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم ، إن صلح حال كل فرد فيها صلح حالها ، وإن فسد فسدت وذهبت ريحها .

وقد يمتحن الله الأمة بفرد يؤتيه القوة والسلطان ثم يؤمِّره عليها ، ليرى سبحانه وتعالى مدى إيمان الأمة وثباتها على صراطه المستقيم ، وليرى هل تنجرف الأمة فى تيار فساد حاكم وطغيان معتد أو تثبت على إيمانها وتقواها فتعيد المفسد إلى جادَّة الحق والصواب ، فيأخذها الله بما سلكت .

« وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمَرنا مُترَفيها فَفَسَقُوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدْميراً »(٣٥) .

والأمة إذا استسلمت لمعتد أثيم ، عاث فيها فساداً وأذلها وسامها الهوان :

« قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذِلَّةً وكذلك يفعلون »(٣٦) .

وضعف الأمة النفسى واستسلامها للأراجيف والشائعات الباطلة التى ينفثها أعداؤ ها بين صفوفها حسداً وحقداً وطمعاً ، من عوامل تخذيل الأمة وانحلالها ونهايتها .

وانحلال أفراد من الأمة خُلُقياً يفشىِّ الانحلال فى الأمة كلها ، فيصيبها الضعف والتفكك ، فتصبح فريسة سهلة ولقمة سائغة لأعدائها المتربصين بها ، وينتهى أمرها إلى الفناء .

وتقليد الأمة الأعمى لمظاهر وعادات وتقاليد وطرق معيشة الأمم الأخرى ، من عوامل ضعف الأمة وانحلالها ، فلا هى ثبتت على حالها الذى أملته عليها ظروفها وإمكاناتها وتقاليدها ، ولا هى أحسنت اختيار الصالح المفيد من غيرها من الأمم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتظل مهتزة متأرجحة بين هذه وتلك حتى تسقط فى الهاوية وتصبح كأن لم تكن بالأمس .

وفى القصص القرآنى الواقعى عبر وصور صادقة لمثل هذه الأمم التى آتاها الله فضلا من الغنى والسلطان مازادت به كفراً وبطراً وطغياناً ، فذهبت ريحها بما قدمت وأفسدت وخرّبت .

وها هو نوح عليه السلام ، جاء قومه بالحق من ربه ، فنأوا عن الحق وأمعنوا فى الفساد ، فأخذهم الله بكفرهم ونَجىَّ من بينهم نوحاً ومن تبعه من الصالحين .

« فكذَّبوه فنجَّيْناه ومنْ معَه فى الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذَرِينَ »(٣٧) .

« أو عجِبْتم أنْ جَاءَكُم ذِكرٌ من ربِّكم على رجل منكم لِيُنْذِرَكُم واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعدِ قومِ نوحٍ وزادكم فى الخَلْقِ بَصْطَةً فاذكروا آلاءَ اللهِ لعلكم تُفلِحون »(٣٨)

وهو سبحانه الذى ذهب بقوم عاد حين طغوا وأفسدوا فى الأرض :

« كذَّبَت عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر »(٣٩) .

« إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَرًا فى يوم نحسٍ مستمرٍ »(٤٠) .

« تَنْزِعُ النَّاس كأنهم أعْجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ »(٤١) .

ولما ذهب الله بقوم عاد بما كفروا ، استخلف من بعدهم قوم ثمود ، وأرسل فيهم نبيه صالحاً عليه السلام ، يختبر مدى إيمانهم بالله وتسليمهم له وطاعتهم أوامره وحمده على نعمائه بطاعة الله والعمل الصالح ، فلما عصوا أمر ربهم وكفروا به استحقوا من ربهم سوء العذاب .

« وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُهُ قد جاءتكم بيِّنة من ربكم هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً فذروها تأكلْ فى أرضِ الله ولاتَمَسُّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليمٌ »(٤٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« واذكروا إذْ جعلَكُم خلفاءَ من بعدِ عاد وبوَّأكم فى الأرضِ تَتَّخِذُونَ من سهولها قصوراً وتنحِتُون الجبالَ بيُوتًا فاذكروا آلاءَ الله ولا تعْثَوا فى الأرض مفسدين »(٤٣) .

ولكنهم تحدَّوا أمر الله ، سبحانه وتعالى ، واستهانوا بالنذير :

« فعقرُوا النّاقة وعتوْا عن أمرِ ربِّهم وقَالُوا يا صَالح ائتنا بما تَعدنا إن كنتَ من المرسلين »(٤٤) .

« فأخذَتْهم الرجفة فأصبحُوا فى دَارهم جاثمين »(٤٥) .

«أفَأَمِنَ أهل القرى أنْ يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمُون »(٤٦) .

فلا أمن لمن عصى أمر ربه ، ولا أمان لمن كابر وكذب بالحق ، فالله قادر على أخذه من مأمنه .

ومن بعد ثمود ، استخلف الله قوم موسى ، وأرسله إلى فرعون هاديا ومبشرا ونذيرا ، وجاءه من آيات الله المبينات ومعجزاته ما تخر له الجبال ، ولكن فرعون وبعضا من ملئه كذبوا ولم يؤمنوا ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وعذبهم العـزيز القدير عذابا مهينا .

« فأرسلنا عليهم الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفـادِعَ والدَّمَ آيـاتٍ مفصلاتٍ فاستَكْبَروا وكانوا قوماً مجرمينَ »(٤٧) .

« فانْتَقَمْنَا منهم فأغْرَقْنَاهُمْ فى اليَمِّ بِأنَّهم كذَّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ »(٤٨)

ولما ذهبت ريح فرعون ، ومن تبعه فى الكفر والاستكبار ، نَجىَّ الله نبيه موسى ومن معه من المؤمنين والمستضعفين من بنى إسرائيل ، وأورثهم الأرض :

« وأَوْرثْنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفونَ مَشَارِقَ الأرضِ ومغارِبَها التى باركنا فيها وتمت كلمةُ ربِّكَ الحُسْنَى على بنى إسرائيلَ بما صَبَروا ودمَّرنا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يَعْرِشُونَ »(٤٩) .

ولكن بنى إسرائيل الذين أنكروا الحق بعد أن تبين ، بعد أن نصرهم الله بعد ضعف وهوان ، ما أن آتاهم الله القوة والعزة استجابة منه لذكرهم ودعائهم له ما لبثوا ، وقد زال عنهم الخوف ، أن كفروا بربهم وزادوا غرورا واستعلاء وعدوانا على أنبياء الله ورسله ، وحاجّوهم وكذّبوهم وقتلوهم وأنكروا وجود الخالق المبدع الذى يُبصر ولا يُبصَر واتخذوا من دون الله عجْلا أعجم يعبدونه ، فباءوا من الله بغضب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبدى ، إذ كتب عليهم التشتت والتيه بلا أرض يستقرون فيها ولا وطن يلم شتاتهم كما ضرب عليهم الذلة والمسكنة والاحتقار من الخلق أجمعين .

« والذين كَذّبوا بآياتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أعمَالُهُمْ هل يُجزَوْنَ إلا ما كانوا يَعْمَلُونَ »(٥٠)

« واتَّخذَ قَوْمُ موسَى مِنْ بَعْدِهِ من حُلِيِّهم عِجْلا جَسَدا له خُوارٌ أَلَم يَرَوْا أنه لا يكلمُهُم ولا يَهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين »(٥١) .

« إنَّ الذين اتَخذوا العِجْل سينالهُمْ غضبٌ مِنْ ربِّهم وذِلَّةٌ فى الحياة الدُّنيا وكذلك نَجْزِى المفتَرينَ »(٥٢) .

« فلما نسُوا ما ذُكِّروا به أنجَيْنا الذين يَنْهَوْن عن السُّوءِ وأخَذْنَا الذين ظَلَموا بعذابٍ بئيس بما كانوا يفسُقُونَ »(٥٣) .

« فلما عَتَوْا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئينَ »(٥٤) .

وهم بنو إسرائيل الذين قطعوا بكفرهم ما وصلهم بالله ، وهم بنو إسرائيل الذين قطعوا بظلمهم ما وصلهم بالناس فضرب عليهم الله الذلة والمسكنة ، وهم بنو إسرائيل الذين قتلوا رسل الله إليهم فاستحقوا لعنته فى الدنيا والآخرة :

« ضُرِبَت علَيهِمُ الذِّلَّةُ أينما ثُقِفوا إلا بحبلٍ من اللهِ وحبلٍ من الناسِ وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهِمُ المَسْكَنَةُ ذلك بأنَّهم كانوا يكفُرُونَ بآياتِ اللهِ ويقتلونَ الأنبياءَ بغير حقٍّ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُونَ »(٥٥)

وما أشبه بنى إسرائيل ، فى خداعهم وتدليسهم ، بأهل مدين الذين أكلوا أموال الناس بالباطل ، واحترفوا التجارة ، ولكنهم لم يسيروا فيها بشرف ولم يرعوا فيها ذمة ، بل اتخذوا من التجارة وسيلة لغش الناس وخداعهم وهضم حقوقهم ، واتخذوا فى سبيل تحقيق أغراضهم الدنيئة الإخلال بالميزان والعبث بالكيل ، إذا اشتروا من الناس زادوا فى هذا وذاك ، وإذا باعوا لهم نقصوهما ، ولم يُجْد معهم ما جاء به نبى الله شعيب من الحق والموعظة الحسنة ، فباءوا بلعنة من الله وخسروا دنياهم وآخرتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكمْ مِنْ إلهٍ غيرُهُ قد جاءتكم بيِّنة من ربكم ، فأوفوا الكيلَ والميزانَ ولاتَبْخَسوا النَّاسَ أشياءَهمُ ولا تُفسِدوا فى الأرض بعدَ إصْلاحِها ذَلِكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمِنينَ »(٥٦) .

وجعل الحق تعالى لمن يسلك مسلك أهل مدين فى أكل أموال الناس بالغش والتدليس مثل ما ينالهم من عذاب :

« ويلٌ للمطفِّفِين * الذين إذا اكْتالوا على الناس يستَوْفون * وإذا كالُوهُم أو وَزنُوهمْ يُخسِرونَ * ألا يظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثونَ * لِيَومٍ عظيمٍ * يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالَمِينَ »(٥٧)

هذه عبر من لدن الحكيم الخبير ، ومن تاريخ البشرية الواقعى أفرادا وجماعات لم يعتبر بها الناس للآن ، ولا يزال الناس فى تيههم وتخبطهم وضلالهم فى سلوكهم الدنيوى .

وها هى أمتنا الاسلامية منذ جاء محمد ﷺ بدعوة الحق بتاريخها الطويل مثلا حيا تتقلب فيه الأمة بين قوة وضعف وسمو وهبوط وغنى وفقر ما تمسكت بدينها أو نأت عنه .

لنرجع إلى خَلْق الإنسان وقد عرفنا المادة التى صنع منها أبو البشر والمادة التى صنع منها بنو آدم .

هذا الإنسان المتجسد أمام أعيننا ويتحرك على هذه الأرض ، مركب من جسم ظاهر ملموس ، وفى داخل هذا الظاهر المادى قُوَى أخرى غير مرئية تحرك ظاهر الإنسان المادى وتحدد سلوكه مع نفسه ومع غيره ، هذه القوى هى المسئولُ الأولُ عن نوع السلوك الإنسانى ، مستقيماً كان هذا السلوك أو مُعْوَجاً .

وإن مايصيب الإنسان من خير أو شر نابع منه ، ومن صنع هذه القوى الخفية الكامنة فى داخله ، وكذلك الحال فى الأمة ، فما أصابها من خير أو شر كان نابعا من داخلها ، فالأمة مجموع الأفراد ، اذا ما استقام كل فرد استقام أمرها وبقدر نسبة المستقيمين الصالحين فى الأمة بقدر ما يكون صلاحها أو فسادها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فسلوك الإنسان إذن نوعان : سلوك مادى ظاهرى وسلوك معنوى باطنى .

والسلوك الظاهرى مجاله جسم الإنسان وأعضاؤه ويظهر لنا هذا السلوك واضحا ملموسا فى حركة جسمه أو عضو من أعضائه .

والسلوك الباطنى مجاله الغرائز والعقل والضمير وهى عوامل دائمة النشاط والحركة داخل الجسم لايحس بها سوى صاحبها .

وما السلوك الظاهرى إلا انعكاس مادى للسلوك الباطنى وبقدر سلامة الثانى وصلاحه بقدر ما تكون سلامة الأول وصلاحه .

وكما أن للجسم المادى وأعضائه وظائف حددها الخالق ، كذلك الأمر بالنسبة للعوامل الباطنية فلكل منها هدف حدده له الخالق وهى أهداف أراد بها الله خير الإنسان وسعادته فى دنياه وآخرته إذا ما هداه الله إلى تحقيق هذه الأهداف ولايهدى الله إلا من آمن به واتقاه وسار فى حياته الدنيا وفق تعاليمه سبحانه وتعالى :

١ - فالغرائز أودعت الجسد (إنسانيا كان أو حيوانيا) لحفظ نوعه من الانقراض وهذا الحفظ منوط بنشاط الغرائز مجتمعة .

ومن هذه الغرائز غريزة حب البقاء وغريزة الجنس وغريزة حب التملك وغريزة السيطرة وغريزة اثبات الذات وهى كلها متفرعة من غريزة حب البقاء والرغبة فى الخلود .

فغريزة حب البقاء تتطلب من الإنسان أن يخلفه من صلبه من يضمن لاسمه الاستمرار ، ولكى يولد له ولد لابد له من أنثى تنجب له هذا الولد ، وطريقه إلى ذلك هو الزواج بجميع طقوسه وضوابطه .

ويقال إن الغرائز عمياء إذا عملت بذاتهادون ضابط أو رابط فالغريزة كامنة فى جسم الإنسان ولايمكن مشاهدتها ولا معرفة مكانها ولكى تنشط لابد لها من مثير تنفعل به ، هذا الانفعال لايزال كامنا لايحس به إلا صاحبه ، فإذا قوى هذا الأنفعال انطلق من جسم الإنسان فى شكل أعمال وحركات ظاهرة وهذا ما يسمى بالنزوع أو السلوك وهذا ما يحصل من جميع الحيوانات العجماوات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الإنسان الذى صوره الله وأحسن تصويره فقد أكرمه خالقه فزوده بالعقل والضمير ، بالعقل يتدبر طريقة تنفيذ متطلبات الغرائز وبالضمير يوجه هذا النزوع أو السلوك إلى عمل صالح يفيد صاحبه ومجتمعه فائدة حقيقية جديرة بإنسانيته .

٢ - والعقل هو تلك الأداة التى أكرم بها الله بنى آدم ليكون عونهم فى تدبير متطلبات الغرائز وتنفيذها ويقوم هذا التدبير على عدة خطوات متتالية متصل بعضها ببعض وهى ماتعرف بالعمليات العقلية ، وقد تنتهى هذه العمليات إلى التنفيذ الفعلى لمتطلبات الغريزة بما يفيد صاحبها فحسب ولو كان فيها إضرار بمصلحة المجتمع ، لولا تدخل الضمير .

٣ - والضمير هو مايسمى فى القرآن الكريم بالقلب أو الفؤاد أو النية ، وهو الذى يوجه الله سبحانه وتعالى إليه الحكمة والموعظة الحسنة ، فمن كان ضميره حيا ويقظا تعاون مع العقل فى تلبية متطلبات الغرائز بالتى هى أحسن ، والضمير الحى هو الذى يهدى الانسان بنور الهداية الربانية يميز به بين الخير والشر وبين الحق والباطل فيأخذ من هذا وذاك أحسنه ، مما يرضى الخالق والخلق ويصلح به حال صاحب هذا الضمير وحال المجتمع الإنسانى .

والإنسان الكامل من وهبه الله جسما سويا وعقلا سليما وضميرا حيا .

والضمير النقى الصافى هو قمة الكمال الإنسانى ، وهو الحارس الأمين الذى يقف أمام أهواء النفس البشرية ونوازعها ، يردها إلى الحق والصراط المستقيم إذا ما نزغ فيها الشيطان بالغواية والمعصية ، والضمير الحى هو الملهم والمرشد للعقل إلى اختيار أمثل الوسائل للسلوك السليم ، ومن تحكم ضميره فى فكره وقوله وعمله كان مركز إشعاع الخير للبشر أجمعين .

« وَنَفْسٍ وَمَاسَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »(٥٨) .

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ »(٥٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولولا هذا الضمير لزالت عن الإنسان كل الصفات الإنسانية الجديرة به ولظل الإنسان ملكا لغرائزه بدلا من أن يكون هو مالكها والغرائز هى أضعف نواحى النفس البشرية وأسرعها استسلاما لغواية الشيطان ، ورغم محاولات العقل كبح جماح هذه الغرائز وتوجيهها وجهة الخير لصاحبه وللمجتمع ، فإنه قد ينجح حينا ولكنه يفشل أحيانا بل قد يبلغ بالعقل القصور والضعف أمام إلحاح الغرائز لدرجة أنها قد تكون هى المنشطة والموجهة له فيساعدها على تحريك الجسم لإحداث ردود أفعالها حيال مثيراتها ويصبح العقل أداة الغرائز لا الموجه لها فيضل طريقه ويسلك بصاحبه سلوكا شاذا لايرضاه الله ولايرضاه المجتمع وهنا مجال الحرب بين الشيطان وبين ضمير الإنسان ، وبقدر صفاء هذا الضمير ونقائه واستجابته لأوامر ربه بقدر ما تكون له الغلبة بإذن الله وبإرادته .

« وَقُلْ لعِبَادِى يَقُولُوا التى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا »(٦٠) .

فما أضعف هذا الإنسان الذى يعجز عن كبح جماح أهواء نفسه الأمارة بالسوء !

وما أكفره إذْ يعرض عن ذكر ربه فلا يشكر له نعمه !

وما أشد ضلاله إذْ ينأى عن الاستجابة لدعوة الحق والإيمان بالله وحده وتقواه !

وما أتعسه إذ يظل كالريشة فى مهب ريحى الخير والشر !

إلا من أتى ربه بقلب سليم ، فيذكر نعمته عليه ويلهج لسانه بالحمد والشكر له ، لابالقول فحسب بل بالعمل الصالح ، وأن يكون مع خالقه فى حربه للشيطان ، مهتديا فى سلوكه بما أنزل الله من محكم آياته .

« إِنَّ الإِنسانَ خُلِقَ هَلوعاً * إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعاً ، وإِذَا مَسَّه الخيرُ مَنُوعاً * إلا المصلِّين * الذين هم على صَلاتِهِم دائمونَ * والذين فى أموالهم حقٌ معلومٌ * للسَّائِل والمحروم »(٦١) .

فلا يزال الإنسان هلوعا قلقا ، مرتعبا بين توقع الخير وتوقع الشر ، مترددا بين فعل الخير وفعل الشر لأن نفسه منزع النقيضين ، ولايزال الإنسان يائسا قانطا إذا ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حل به سوء وهو لا يدرى ولا يريد أن يدرى ، أن ما لحقه من سوءٍ إنما بفعله وسلوكه هو وحده ، وأنه قد كسب بما قدمت يداه :

« فأصابهم سَيِّئَاتُ ما كَسَبُوا والَّذينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وما هُم بِمُعْجِزِينَ »(٦٢) .

ومن الناس من ضعفت تقواه وخبا إيمانه فكفر بنعمة ربه وفضله حيث يجب شكره وحمده ، فلا يلجأ إليه ولا يذكره إلا عندما تحل به مصيبة وعندئذ يجأر بدعاء ربه ، ملتمساً منه العون والغوث :

« وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعْرَضَ ونأى بجانبِه واذا مسهُ الشَّرُّ فذو دعاءٍ عَرِيضٍ »(٦٣) .

« واذا أنعَمْنا على الإنسانِ أعرَضَ ونأى بجانِبِه وإذا مسَّه الشَّرُّ كان يَئُوساً »(٦٤) .

بل إن ضعف النفس البشرية قد يذهب بصاحبها إلى أبعد صور الغرور والجحود والكفر اذا ما آتاه الرحمن فضلا أو نعمة ، فيصور له خياله السقيم وضميره المريض أن ما به من نعم وسعة ورزق إنما هو من صنع يديه وبتدبير منه ، ولا فضل لأحد عليه ، فتأخذه العزة بالإثم ، ويزداد بنفسه غرورا وعلى الناس استعلاء وفى الأ : افساداً :

' مسّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمةً منّاً قال إنما أوتيتُهُ على عِلمٍ بل نّ أكثَرَهُم لايعلمُونَ »(٦٥) .

« لاتَحسبَنَّ الذين يفرحونَ بما أَتَوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يَفعلوا فلا تحسَبَنّهم بمفازةٍ من العذاب ولهم عذابٌ أليمٌ »(٦٦) .

« قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ » (٦٧) .

ومن الغرائز المركبة فى النفس البشرية ، غريزة حب السيطرة ، تلك الغريزة التى أودعها الله فى الإنسان لحكمة إلهية هى أن يوجهها الإنسان إلى السيطرة على موارد الأرض الطبيعية ليستخدمها كأدوات ومواد لتعمير الأرض التى أراد الله لها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمران لمصلحة البشر أجمعين ، لا لفرد واحد ولا لأمة بعينها ، لذا أمد الله الإنسان بالعقل المدبر وأنزل إليه آيات مبينات لطرق هذا الاستغلال وأهدافه النبيلة ، ثم حذره من الإفساد فى الأرض باتخاذ خيراتها وسيلة للتسلط والاستبداد والتعالى والإفساد فليس الهدف من السيطرة على موارد الطبيعة هو التعمير والاستمتاع فى الحياة الدنيا فحسب بل العمل والتمهيد أيضا لحياةٍ أفضل وأبقى ، وهى الحياة الآخرة وما فيها من نعم أعدها العلى القدير لعباده الصالحين .

« وما هذه الحياةُ الدنيا إلاّ لهوٌ ولعبٌ وإن الدارَ الآخِرَةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يَعلمونَ »(٦٨) .

« زُيِّنَ للناس حبُّ الشهوات من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضةِ والخيْلِ المُسَوّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حُسْنُ المآب »(٦٩) .

« وتأكلونَ التُّراثَ أكلاً لمّاً * وتحبونَ المالَ حباً جماً »(٧٠)

« كلاّ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى * أن رآه استغْنَى »(٧١) .

ومن الناس من تنحرف به غريزة حب السيطرة فتأخذه العزة بالاثم ، ويتناسى ضعفه أمام القوى القهار ويزداد بنفسه غرورا ، فيفسد فى الأرض حيث ظن سوءاً أنه من المصلحين :

« وإذا قيلَ لهم لا تُفْسدوا فى الأرض قالوا إنَّما نحن مُصلحون * ألاّ إنهم هُم المفسدونَ ولكن لاَيشعُرون »(٧٢) .

ومن الناس من يمدهم الله بما يشتهون من متاع الدنيا ، ليفتتن بها ضعاف الإيمان افتتانا قد يصرفهم عن ذكر ربهم وتقواه ، ويزيدهم غرورا وعتوا وفسادا وإمعانا فى الضلال ، حتى يأخذهم القوى الجبار بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ويا له من عذاب :

« واعْلموا أنما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنةٌ وأنَّ الله عندهُ أجرٌ عظيمٌ »(٧٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ولا يحْسَبَنَّ الذين كفروا أنَّما نُملِي لهم خيرٌ لأنفُسِهِمْ إنما نُملِي لهم ليزدادوا إثْماً ولهم عذابٌ مُهينٌ »(٧٤) .

« نُمَتِّعُهُم قليلاً ثم نضطرُّهمْ إلى عذابٍ غليظٍ »(٧٥) .

« مَن يُضْلِلِ اللهُ فلا هادىَ لهُ ويذَرُهُمْ فى طُغْيانِهم يعْمَهُون »(٧٦) .

« قُل اللَّهُمَّ مالكَ المُلك تؤْتى المُلْكَ من تشاءُ وتنزعُ المُلْكَ ممن تشاءُ وتُعزُّ مَن تشاءُ وتذلُّ من تشاءُ ، بيدكَ الخَيْرُ ، إنك على كل شىءٍ قدِيرٌ »(٧٧) .

ومن أحسن عملا ممن إذا آتاه ربه الجاه والسلطان ازداد تـواضعا مـع الناس وخشوعا لربه وتقواه بالصلاة والعمل الصالح ، وهؤلاء هم :

« الذين إنْ مكَّنَّاهُمْ فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهَوْا عن المُنكر ولله عاقبةُ الأمورِ »(٧٨) .

ومن مظاهر حب السيطرة تلك الرغبة الجامحة التى تتسلط على ضعيف النفس قليل الإيمان فتدفعه إلى الرغبة فى إثبات ذاته ووجوده بمظاهر مصطنعة كاذبة ، يتظاهر بها أمام الناس ظنا منه أنه بهذا السلوك إنما يبرز شخصيته ويضخمها أمام الغير ، وكأنه باصطناع هذا السلوك يشعر فى قرارة نفسه بتفاهته وقلة حيلته وقصور تفكيره ، وغير ذلك من نواحى شعوره بما فيه من نقص خِلْقِى أو خُلُقى ، أو لمجرد استجابة لا واعية لما يلبسه شيطانه من غرور أجوف بأهميته وهو بهذا السلوك الأعوج لا يعرف ولا يريد أن يعرف أن من البشر من هم أهم منه وأعظم شأنا وإلى ربهم أحب وأقرب ، فيتخبط فى سلوكه ويبدى من الأقوال والأفعال مـالا يقصد بـه وجه الله ولا خـير الناس ، وقد يجد مثل هذا المغرور من المنافقين والوصوليين من يتظاهر له بالإعجاب أو التعظيم طلبا لمنفعة أو مصلحة يتقاضونها منه أو خوفا منه ودفعا لأذاه ، وهذا وذاك إنما يحتقرانه فى دخيلة نفوسهم ويضحكان منه ، فيبوء هذا الدعى بسلوكه المزيف بهوان شأنه أمام الله وأمام الناس :

١ - فمن هذا اللون من الناس من يلبس ثوبا فضفاضا من الكبرياء المزيفة فى سيره أمام الناس . . فيتمايل مختالا فى مشيته ذات اليمين وذات الشمال ويدب على الأرض بقدميه عامداً ليلفت الأنظار إليه ، ويميل برأسه جانباً إذا ما تحدث إلى أحد ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إمعانا منه فى التعالى على الغير ولا يدرى هذا المغرور أنه بسلوكه هذا إنما يثير كراهية الناس ويفقد حب الله له ، وينهى العلىّ المتعالى عن مثل هذا السلوك :

« ولا تصعّر خدَّكَ للناس ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحاً إنَّ اللهَ لايحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ »(٧٩) .

« ولا تمشِ فى الأرضِ مَـرَحـاً إنـك لن تَخْـرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبـالَ طولاً »(٨٠) .

٢ - ومنهم من إذا تحدث جأر بصوته وزعق ، حيث لا موضع ولا مناسبة للزعق ، إنما هو حب السيطرة وإثبات الذات ، أوحيا إليه ودفعاه إلى هذا المسْلك الشاذ ليلفت به الأنظار إلى شخصه التافه ويشد آذان الناس للاستماع إلى صوته المنكر ، ويأخذ القرآن الكريم بأُذُن هذا الدعىّ ليلقى إليه النصح بأسلوبه اللاذع المبين :

« واقصِدْ فى مَشيِك واغْضُضْ من صوتِكَ إنَّ أنكَرَ الأصْوَاتِ لصَوْتُ الحَمير »(٨١) .

٣ - ومنهم من يحاول إثبات ذاته بغير حق وتأكيد وجوده فى غير موضعه فيتخذ دوراً إيجابياً فى المجتمع ، لا ليعمل صالحاً ، بل بالعدوان أو بالتطاول على من هو أكبر منه سناً أو أعلى مقاماً أو أكثر علماً ، فيحاول هذا المغرور تصدُّر المجالس وإقحام نفسه على رأس زمرة من الناس ، قد يكون هو أقلهم شأناً ومقاماً ، وكأنه يريد بهذا السلوك المضحك أن يثبت أنه أعلاهم مقاماً وأكثرهم علماً ، ليلفت إليه الأنظار ولينتزع من الناس على غير رغبة منهم ، اعترافاً بوجوده ، بينما الجمع لا ينظر إليه ولا يحس به ، فيفسد بهذا التصرف الصبيانى نظام هذا الجمع ، ويبث فيه الفوضى والهرج . ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه ، فوضعها حيث يجب أن تكون : فما أجدر الكثير من هؤلاء الأدعياء بالتمعن فى هذه الآية الكريمة والامتثال لحكمتها :

« ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تَفَسَّحُوا فى المجالس فافسَحوا يفسَحِ اللهُ لكم ، وإذا قيل انْشزُوا فانشُزُوا يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبيرٌ »(٨٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ - أما هذا الذى يناقش غيره واضعاً فى تفكيره وفى ضميره ، بادىء ذى بدء ، أن يفرض رأيه على غيره فرضاً وبغير حق ، فأمره أعجب ومسلكه أضل ، فهو يرفض أى رأى مهما كان حقاً بيّنا ، فهو لا يقصد بمناقشته الوصول إلى الحق أو تبين الصواب للوصول بهما إلى حل سليم ، ورغم علم هذا المتطفل المغرور ويقينه بتفاهة رأيه وسقم تفكيره ، فإنه يغمض عينيه ويصم أذنيه ويغلق عقله ، عامداً متعمداً ، عن الحق البين والقول الفصل فى موضوع المناقشة ، إنما هى الكبرياء الجوفاء وحب الظهور الذى يملى على صاحبه الوقوف موقف العناد الصبيانى ، فلا يعترف بالحق رغم وضوحه ورغم اقتناعه به فى قرارة نفسه ، ولا يدرى هذا المسكين أنه بغروره هذا وبإنكاره للحق البين ، إنما يضيع الحقيقة ويميعها ، ويخمد الرأى الصائب فى موضوع معين قد يتوقف عليه مصيره ومصير مجتمعه **فيصيبهما بالدمار** ، وفى مجتمعنا المعاصر الكثير من هذه المشاهد المؤسفة ، فكم من رأى صائب قد أخمد وكم من حق بيّن قد أهدر ، لا لسبب إلا لأن صاحب هذا الرأى موظف صغير يأبى رئيسه الأخذ برأيه رغم وضوحه ، وكيف يأخذ برأى مرءوسه رغم صدقه ووضوحه ؟ كيف يأخذ برأى من هو أقل منه مركزاً ، وهو الذى يظن ، تعالياً وغروراً بمركزه ، أن كلمته هى الكلمة الفاصلة بين الحق والباطل ، وأن رأيه هو الحل الذهبى لأية مشكلة ، فيضيع على هذا المكابر المتعالى وعلى مجتمعه الكثير من الخير والنفع ويصيبهما بالدمار والضياع :

« يجادلونك فى الحق بعد ما تبينَ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرونَ »(٨٣) .

« ولا تَلْبِسُوا الحقَّ بالباطل وتكتُمُوا الحقَّ وأنتم تعلمونَ »(٨٤) .

« وإنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدَى لا يتّبعوكُم ، سواءٌ عليكم أدَعَوْتُموهم أمْ أنتم صامتون »(٨٥) .

٥ - ومنهم من مات ضميره وخبا إيمانه بربه ، وانحطت ذاته فى دخيلة نفسه ، وهو على الله والناس أهون ، فيحاول بالباطل وبالسّفه ، إعلاء شأنه بغير حق أمام غيره ، فيدفعه تفكيره السقيم وخبث طويته إلى سلوك أعوج ، إذْ يعمد إلى الحطّ من شأن غيره بالسخرية منه وبالتعريض به بنابى الألفاظ والألقاب بل قد يذهب به كفره وغواية شيطانه إلى نهش أعراض الناس كذباً وافتراء ، وكشف ما أمر الله بستره ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظناً منه أنه بقدر ما يحط من شأن الغير ، بقدر ما يعلى من شأن نفسه فى أعين الناس ، فياله من ضلال ما بعده ضلال ! وياله من فساد ما بعده فساد ! وعلى شخص هذا خلقه وسلوكه تدور دائرة السوء ، فيبوء باستهجان الناس له ، وبغضب الله عليه

« ياأيها الذين آمنوا لا يسْخَر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تَلْمِزُوا أنفسَكم ولا تَنَابَزُوا بالألقاب بئس الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ ، ومن لم يتبْ فأولئك هُمُ الظالمون »[٨٦] .

« إن الذين يرمون المُحْصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنوا فى الدنيا والآخرةِ ولهم عذابٌ عظيمٌ »[٨٧] .

٦ - ومن محبى السيطرة وعشاق الظهور فى المجتمع من يلجأ إلى وسائل الإعلان عن نفسه بما أعطى للناس مما أعطاه الله : ويتخذ مما أحسن به إلى الناس وسيلة لهذا الإعلان ولهذه الشهرة ، ويرمى بذلك إلى اكتساب شهرة دنيوية عاجلة تظهره أمام الملأ بمظهر الرجل السخى النافع ، بل انه قد يتعمد العطاء أمام أكبر عدد ممكن من الناس . إمعانا فى توسيع دائرة ظهوره وشهرته ، لا ابتغاء مرضاة الله فحسب ، ولا يدرى هذا المسكين أنه بهذا النوع من العطاء قد أذل من ظن أنه قد أحسن إليه . وقد يدفع حب الشهرة بصاحبها إلى الإعلان عن كرمه واحسانه بالكلمة والصورة على صفحات الصحف والمجلات ، إن مثل هذا الإحسان لايقبله الله ، لأن صاحبه قد بذله لغرض غير مرضاة الله ، ويكفى صاحب هذا الإحسان جزاءً ما ناله من شهرة دنيوية موهومة :

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطانُ له قرينا فساء قريناً »[٨٨] .

٧ - ومنهم من يخادع الناس بالقول دون العمل ، ويحاول الظهور عليهم بالتباهى بعلمه ، وحكمته فيلقى إليهم بالنصائح والمواعظ ذات اليمين وذات اليسار وينسى أن يبدأ بنفسه ليعظها بالعمل بالتى هى أحسن وأقوم ، أو قد ينسب لنفسه عملاً عظيما نافعاً ، وهو لم يمارسه ولم ينجزه ، إنما هو يريد بكل هذا أن يظهر على المجتمع ويثبت وجوده وهو القليل الحيلة ، كل بضاعته فى الدنيا كلام مزوق هو أبعد الناس عن الأخذ به ، فلا يكسب من سلوكه هذا إلا غضباً من الله ومقتا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلونَ * كَبُر مَقْتاً عند اللهِ أن تقولوا مالا تفعلونَ »(٨٩) .

وبعد ، فتلك مقدمة لابد منها لكشف جوهر الكائن الإنسانى ودوافع سلوكه يقف منها القارىء على حقيقة الإنسان عارية لا لبس فيها ولا غموض ، ويتبصر فيها ويتأمل خلقه ونشأته إذْ لم يكن شيئاً مذكوراً ، وليكون على بينة وبصيرة . . . بخفايا نفسه ونزعاتها ، وليدرك منها الحكمة الإلهية من خلقه واستخلافه على هذه الأرض ، ويهتدى بها إلى كوامن نفسه وأهوائها ونزعاتها ، ويدرك منها دوافع سلوكه وأهدافه فيختار من هذه الأهداف أحسنها وأصلحها ويتجنب من المسالك ما يؤدى به إلى التلف والفساد ، وليدرك منها أقوم السبل لتهذيب هذا السلوك ليرتقى به إلى المستوى الذى حددته تعاليم الخالق الحكيم فيما نزل على خاتم رسله فى خاتم كُتُبِه سبحانه وتعالى ، هذا القرآن الكريم الذى جاء مصدّقاً لما سبق من كتب الله المنزلة ، هدى وتبصرة لقوم يتفكرون ويؤمنون ، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد كتبه ورسله ، يوم يقف الإنسان بين يدى خالقه سافراً عارياً ، لاحول له ولا قوة ، يحاسبه ربه حساباً عسيراً على ما قدمت يداه فى حياته الدنيا ، ومَنْ أحسَنَ عملا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

تلك مقدمة لابد منها لما يلى من فصُول هذا البحث ، كى يقف منها موقفاً واعياً من آمن بالله وباليوم الآخر ، فيتجه إلى الخالق جل وعلا بقلب خالص ذاكراً متذكراً ، ملتمساً منه الهداية إلى أقوم المسالك فى رحلته القصيرة فى حياته الدنيا وليتزود منها ويتجهز فيها لآخرته حتى يقف أمام ربه راضياً مرضياً فى هذه الحياة الدنيا وفى يوم البعث والحساب المحتوم .

وليس هناك أصدق من آيات الله البينات فى قرآنه الكريم مرجعا ، يرجع إليه المؤمن فى حركته وسكونه يتلمس فى نصوصها ومعانيها وتوجيهاتها صراط ربه المستقيم ، ويهتدى بها فى حياته الدنيا فكراً وقولاً وعملاً ، فينظم علاقته بربه وبنفسه ومجتمعه على أسس سليمة من الحق والعدل ، فيكون بذلك قد أدى الأمانة التى من أجلها خلقه الخالق وسواه ثم استخلفه على هذه الأرض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأى مرشد إلى الحق والعدل خير من آيات الفرقان لمن خلص قلبه وَصَفَا ضميره ؟ وأى هاد إلى الصواب والرشاد خير من آيات القرآن لمن شرح الله صدره للإيمان بخالقه الأحد وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ؟ تلك هى الآيات القرآنية التى وجهها العزيز الحكيم للناس كافة ، فى كل زمان ومكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامـش البـاب الأول

(١) الأعراف ٢٠٤ .
(٢) الإسراء ٩ .
(٣) الأنعام ١٥٣ .
(٤) آل عمران ٣ .
(٥) الشورى ١٣ .
(٦) السجدة ١٥ .
(٧) السجدة ١٦ .
(٨) الأنفال ٢ .
(٩) الزمر ٢٣ .
(١٠) الإسراء ٩٤ .
(١١) الإسراء ٩٥ .
(١٢) آل عمران ١٠٤ .
(١٣) من سورة القلم ١-١٣ .
(١٤) النحل ٤ .
(١٥) الإنسان ٣ .
(١٦) مريم ٩ .
(١٧) آل عمران ٥٩ .
(١٨) السجدة ٧ .
(١٩) الصافات ١١ .
(٢٠) الحِجْر ٢٦ .
(٢١) الرحمن ١٤ .
(٢٢) الأعراف ١٢ .
(٢٣) المرسلات ٢٠ .
(٢٤) القيامة ٣٧ .
(٢٥) العَلَق ٢ .
(٢٦) المؤمنون ١٢-١٤ .
(٢٧) فصّلت ٤٦ .
(٢٨) فاطر ٣٩ .
(٢٩) البقرة ٣٠ .
(٣٠) الأنعام ١٦٥ .
(٣١) القصص ٧٦ .
(٣٢) القصص ٧٧ .
(٣٣) القصص ٧٨ .

(٣٤) القصص ٨١ .
(٣٥) الإسراء ١٦ .
(٣٦) النمل ٣٤ .
(٣٧) يونس ٧٣ .
(٣٨) الأعراف ٦٩ .
(٣٩) القمر ١٨ .
(٤٠) القمر ١٩ .
(٤١) القمر ٢٠ .
(٤٢) الأعراف ٧٣ .
(٤٣) الأعراف ٧٤ .
(٤٤) الأعراف ٧٧ .
(٤٥) الأعراف ٧٨ .
(٤٦) الأعراف ٩٧ .
(٤٧) الأعراف ١٣٣ .
(٤٨) الأعراف ١٣٦ .
(٤٩) الأعراف ١٣٧ .
(٥٠) الأعراف ١٤٧ .
(٥١) الأعراف ١٤٨ .
(٥٢) الأعراف ١٥٢ .
(٥٣) الأعراف ١٦٥ .
(٥٤) الأعراف ١٦٦ .
(٥٥) آل عمران ١١٢ .
(٥٦) الأعراف ٨٥ .
(٥٧) المطففين ١-٦ .
(٥٨) الشمس ٧-١٠ .
(٥٩) البقرة ٢٦٩ .
(٦٠) الإسراء ٥٣ .
(٦١) المعارج ١٩-٢٥ .
(٦٢) الزمر ٥١ .
(٦٣) فصلت ٥١ .
(٦٤) الإسراء ٨٣ .
(٦٥) الزمر ٤٩ .
(٦٦) آل عمران ١٨٨ .
(٦٧) عبس ١٧ .
(٦٨) العنكبوت ٦٤ .
(٦٩) آل عمران ١٤ .
(٧٠) الفجر ١٩ ، ٢٠ .
(٧١) العلق ٦ ، ٧ .
(٧٢) البقرة ١١ ، ١٢ .
(٧٣) الأنفال ٢٨ .

(٧٤) ال عمران ١٧٨ .
(٧٥) لقمان ٢٤ .
(٧٦) الأعراف ١٨٦ .
(٧٧) آل عمران ٢٦ .
(٧٨) الحج ٤١ .
(٧٩) لقمان ١٨ .
(٨٠) الإسراء ٣٧ .
(٨١) لقمان ١٩ .
(٨٢) المجادلة ١١ .
(٨٣) الأنفال ٦ .
(٨٤) البقرة ٤٢ .
(٨٥) الأعراف ١٩٣ .
(٨٦) الحجرات ١١ .
(٨٧) النور ٢٣ .
(٨٨) النساء ٣٨ .
(٨٩) الصف ٢ ، ٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى
الإيمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معنى الإيمـــان :

الإيمان لغوياً من أمن بمعنى لم يخف ولم يتردد ، بل اطمأن وهدأ باله واستقرت نفسه ، لأنه أمن من أن يلحقه شيء يؤذى ضميره أو فكره أو جسده ، هو ومن يحب .

والشخص الآمن هو المطمئن ، ومنها الأمين هو من كان موضع الثقة والأمان والاطمئنان على ما يودع عنده من أمانات ، مادية كانت أو معنوية .

وآمن الشخص بشيء أو شخص آخر بمعنى صدق وأذعن لهما عن فهم واقتناع ويقين ، بعيداً عن الوقوع تحت أى ضغط من أى نوع ، ترهيبا كان هذا الضغط أو ترغيبا .

واسم فاعلها مؤمن وهو المذعن المصدق بلا حدود وبدون أى قيد أو شرط ومصدرها إيمان .

والإيمان بالمعنى الدينى هو التصديق والإذعان والخضوع المطلق لإله واحد ، والاستسلام لمشيئته عن اقتناع تام وبغير تحفظ أو تحت أى ضغط من أى نوع كان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والإيمان الراسخ بالله هو عهد وميثاق يقطعه العبد طواعية لربه ، ويهدى صاحبه دائماً إلى الصواب فى سكونه وحركته ، ويلهمه الحق فى كل ما يحس به أو يفكر أو ينطق أو يعمل ، وبقدر ما يكون المؤمن من قوة يقين بربه ، وبقدر ما يكون على علم به من صفات نفسه ونزعاتها ، وبقدر ما يتأمل فى آيات الله البينات فيما يقع عليه بصره أو حسه من أسرار هذا الكون ، وبقدر بعده عن هوى النفس وغرورها بمظاهر الدنيا البراقة ، وبقدر عدم المغالاة فى حب هذه المظاهر والاستمتاع بها بما فيها من مال وجاه وزخرف . بقدر هذا كله أو بعضه ، بقدر ما يكون قرب المؤمن أو بعده عن ربه ، وقوة إيمانه أو ضعفه .

والمؤمن المسلم هو من سار على هذا المعنى فكراً وقولاً وعملاً ، ففى الإسلام لله العزيز الحكيم ، والإيمان بكتابه الكريم ، وأداء فرائض دينه القويم فى العبادات والمعاملات ، فى كل هذا الخير كل الخير للمسلم وللمجتمع الإسلامى وتسديد خطاهما واطمئنانهما وسلامة بناء المجتمع الإسلامى كله وترابطه ، لتكون من هذا المجتمع بحق ، خير أمة أخرجت للناس ، أمة تدعو إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

والمؤمن المسلم هو من آمن بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، والمؤمن المسلم هو من أسلم وجهه وأمره لربه وخالقه ومنشئه ومسيره ورازقه وهاديه ، والمؤمن المسلم هو من آمن بما أنزل الله من كتب وختامها قرآنه الكريم واتخذ منه دستوره فى حياته الدنيا ليكون فى آخرته من الصالحين ، والمؤمن المسلم هو من آمن برُسُلِ ربه الذين اصطفاهم من بين خلقه ليبلغوا الرسالة وخاتمهم الرسول الأمى الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ، الذى لاينطق عن الهوى بل يبلغ ما أوحى إليه من ربه . . والمؤمن المسلم هو من آمن باليوم الآخر ، يوم حساب الخالق لخلقه على ما قدموا فى حياتهم الدنيا ويجزى كل إنسان بما كسب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

موضع الإسلام من الأديان السماوية

إن كلمة الإسلام تعنى لغوياً التسليم والاستسلام وتعنى بالمعنى الدينى إسلام الانسان نفسه ، جسدا وفكرا وقولا وعملا وكل كيانه لله عز وجل ، وصفته مسلم ، وهو من يعمل بتعاليم الله الواحد الأحد وأوامره الواردة فى خاتم كتبه ، القرآن الكريم وكلها أوامر وتعاليم وشرائع لصالح الإنسان فى دنياه ، وزاد له فى آخرته . . وهى تعاليم وشرائع وأوامر أنزلها الله ، سبحانه وتعالى فى كل كتبه على كل رسله .

ومتى أسلم الإنسان لرب العالمين ، حصن نفسه من غواية الشيطان الذى يوسوس له بفعل الشر الذى يقوده هو ومجتمعه إلى التعاسة والبوار فى حياته الدنيا ، وسوء المصير فى الحياة الآخرة .

إن الأديان السماوية جميعها تهدف لخير الانسان وتطهيره من وسوسة الشيطان الذى تربص لابن آدم بالغواية والسوء حقدا وحسدا منه على هذا المخلوق الذى انحدر ممن خُلِق من طين الذى أبى إبليس أن يسجد له كما أمره الخالق . فباء هذا العاصى المارق ومن تبعه بلعنة الله وغضبه :

« قالَ لَم أكُن لأسجُدَ لبَشَرٍ خلقتَهُ من صلصال من حمإٍ مّسنون »[1]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فزجره الله ولعنه ، إذْ :

« قال فاخرجْ منها فإنك رَجيم » * « وإنَّ عليك اللعنةَ إلى يومِ الدينِ »[٢]

ويتمادى إبليس اللعين فى عصيانه وضلاله ، إذْ :

« قال ربِّ بما أغوَيْتَني لأزَيِّننَّ لهم فى الأرض ولأغوِينّهم أجمعين »[٣]

ومن ثم رعى الله القوى القدير بنى آدم الذين استخلفهم فى الأرض وأمدهم بأوامر ونواهٍ ربانية ، وقاية لهم من كيد إبليس وغوايته لهم ، فأنزل كتبه على رسل منهم وحمّلهم أمانة تبليغها للناس كافة هَدْيا لهم إلى صراطه المستقيم ، مبشرين ومنذرين :

منذرين بعذاب مهين من خالف أمر ربه واتبع خطوات الشيطان ، ومبشرين بالخير العميم فى الدنيا والآخرة من خضع وأسلم لله .

فمصدر الكتب السماوية كلها واحد ، هو لوح الله المحفوظ لدن العليم الخبير ، الواحد الأحد الذى لا إله غيره ، يُعبد ويُتقى ، وليس من سواه يُؤمَن به وبكتبه ، وهو الله الأزلى المطلق الذى لا يحده مكان ، ولا يشتمل عليه زمان ، وهو سبحانه القوى المعز ، وبذاته من لم يلد ولم يولد ، ولا شريك له ولا شىء مثله يعبد . فالخالق واحد والمبدىء واحد والمدبر واحد ، والذى خلق وقدر الحياة والموت والبعث والحساب هو الله وحده ، وهو وحده المحيط علما بكل خلقه فى كونه الواسع الذى لا يعلم حدوده إلا هو ، وهو الأول وهو الآخر وهو وحده الذى له الملك وإليه المصير ، هو وحده له الذكر وله الحمد والشكر فى كل زمان وفى كل مكان وفى جميع الأحوال . . . هو وحده القادر على أن يقول لما يريد كن فيكون .

هو الذى أنزل على البشر كتبه بالدعوة إلى المعروف وبالنهى عن المنكر ، ومن سار على هدى كتبه المنزلة اهتدى للحق ، ومن نأى عنها وكابر ضل فاستحق الحساب والمساءلة يوم البعث العصيب . وما صرَف بعض أهل الكتاب عن الإيمان بخاتم كتب الله وبخاتم رسله إلا الغرور بما آتاهم الله من عز وسلطان وإلا الحسد لمن أنزل لهم خاتم كتبه وأرسل إليهم خاتم رسله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد كان بعض أهل الكتاب قبل الرسالة المحمدية فى شقاق فيما بينهم ، كل منهم يدعى أنه شعب الله المختار وأن كتابه هو خاتم كتب الله وأن دينه هو الأحق بأن يتبع . وكأن كلا منهم قد أحاط علما بحكمة الله وحُكمِه وقَدَرِه :

« وقالتِ اليهودُ ليستِ النَّصارَى على شىءٍ وقالت النصارى ليستِ اليهودُ على شىء وهم يتْلون الكتابَ كذلك قال الذينَ لا يعْلمونَ مِثلَ قولِهم ، فاللهُ يحكمُ بينهمْ يوم القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون » (٤)

فلما جاء القرآن مصدقا لما بين أيديهم من كتب الله ، اتحد عليه المتخاصمان وكذباه :

« وقالوا لن يدخلَ الجنة إلاّ مَنْ كان هُوداً أو نَصَارَى تلك أمانيُّهم ، قل هاتوا برهانَكم إنْ كنتم صادقينِ »(٥) .

ويؤكد العليم الخبير دعوة الحق ، فيقول :-

« بَلى من أسلَمَ وجهَهُ لله وهو مُحسِنٌ فَلَهُ أجرُهُ عِند رَبِه ولا خوفٌ عليهمْ ولاهُم يحْزنونَ »(٦) .

ويحذر الله رسوله الأمين من كيد بعض أهل الكتاب الذين كانوا له أشد عداء من المشركين ، فيقول :-

« ولنْ ترضَى عنك اليهودُ ولا النَّصَارَى حتى تَتَّبعَ مِلَّتَهُمْ قل إن هُدَى الله هو الهُدَى ولئن اتَّبعْتَ أهْواءَهُم بعد الذى جاءَكَ من العِلْمِ مالَكَ مِنَ الله من ولِيٍّ ولا نَصيرٍ »(٧)» .

وما نَزَّل الله قرآنه الكريم إلا ليسلك بمن انحرف من أهل الكتاب وضل عن أمر الله ، إلى صراطه المستقيم الذى بينه فى كل كتبه . . وقد رأى العليم الخبير بنفوس البشر وأهوائهم مدى انحراف بعض أهل الكتاب عما نزّل الله ، فكان ، سبحانه وتعالى ، ينزل من لدنه الكتاب تلو الكتاب ليعيدهم إلى صراطه المستقيم ، وكلها قصدها واحد ومبدؤها واحد ، وهو بث الخير والحق فى نفوس البشر وانتشالهم مما كانوا فيه من ضلال ، حتى كان آخر كتبه المنزلة هذا الكتاب القيم الذى لا يأتيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومؤكدا به مانزل من كتب ومصدقا به ما أوحى من آيات ومفصلا فيه ما أجمل ، وموضحا ماغمض ، ومصححا مازُيف فى هـذه الكتب وما حُذف منها .

ومن ذا الذى يكذب خاتم رسل الله ، وقد بشر به رسول من قبل ؟

« وإذْ قال عيسى ابْنُ مَرْيَمَ ، يابنى إسْرائيلَ إنِّى رسولُ الله إليكم مُصدِّقا لما بين يَدَىَّ من التوراة ومُبشّراً برسولٍ يأتى مِنْ بَعْدى اسْمُهُ أحمدُ فلما جاءَهُم بالبيِّنات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ »(٨)

وقد أنزل الحكيم الخبير كل كتاب بلغة القـوم الذين أنـزل إليهم ، ليفهموه ويعقلوه ومن ثم يسيرون على هداه عن بيِّنة وإيمان ، وحتى لا يكون للناس بعد ذلك حجة :

« ومأأرْسَلْنا مِنْ رسولٍ إلا بِلسانِ قومِهِ ليبينَّ لهم فَيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ ويَهْدى مَن يشاءُ وهو العزيزُ الحكيمُ »(٩) .

ولاتبديل ولاتغيير لكلمات أنزلت من عند الله ، فأصلها واجد وهدفها واحد ، إنما جاء التبديل والتغيير ممن ضل من البشر ، ممن أغواهم شيطانهم بتحريف ما أنزل الله وبتغييره بالحذف والإضافة فى النص ، وبالالتواء فى شرح المعانى عما أراد العزيز الحكيم . ومن ثم تتابعت كتب الله المنزلة على البشر ، لا لتأتى بجديد بل للتذكرة لمن نسى والتصويب لمن غيّر وبدَّلَ وهو على علم :

« ولقد بَعَثْنا فى كل أمةٍ رسولاً أنِ اعبدُوا اللهَ واجتنبوا الطَّاغوتَ فمنهم مَنْ هَدَى اللهُ ومنهم مَنْ حَقَّت عليه الضَّلالةُ فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كـان عاقبـةُ المكذِّبينَ »(١٠) .

وقد أنزل الله قرآنه الكريم مصدقا لما سبق أن أنزله من كتب ، ومؤكدا فيه ما سبق أن شرعه من شرائعه ودينه :

« شَرَعَ لكم مِنَ الدِّين ماوصَّى به نوحاً والذى أَوْحَيْنا إليكَ وما وصَّيْنا به إبراهيمَ وموسَى وعيسَى أَنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه كَبُرَ على المشركينَ ماتدعوهم إليه اللهُ يَجْتَبِى إليه من يشاءُ ويهْدى إليه من يُنيبُ »(١١)

« وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعدَ مِن البيتِ وإسماعيلُ ربنا تقبَّل منا إنَّك أنت السميعُ العليمُ »(١٢) .

« ربَّنا واجْعلنا مُسلمَين لك ومن ذُرِّيَّتنَا أُمةً مسلمةً لكِ وأرِنا مناسِكنَا وتُبْ علينا إنّك أنتَ التّوابُ الرَّحيمُ »(١٣) .

« ومَن يرغبُ عن مِلّةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وإنّه فى الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إذْ قَالَ لَه ربُّه أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إن الله اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسْلِمُونَ »(١٤) .

ومن بعد إبراهيم نزل الله التوراة على بنى إسرائيل ، يهديهم فيها إلى ما سبق أن هدى الله فيه إبراهيم :

« إنَّا أنزلنا التَّوراةَ فيها هُدًى ونورٌ يَحْكمُ بها النَّبِيُّونَ الَّذِيَن أَسْلَموا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبارُ بما اسْتُحْفظُوا مِنْ كِتابِ الله وَكانُوا عَلَيْه شهداءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ واخشَوْنِ وَلاَتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قليلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ »(١٥) .

ثم أرسل الله إلى بنى إسرائيل رسوله عيسى بن مريم وآتاه الإنجيل مصدقا للتوراة :

« وقفَّينا على آثارهم بعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ وآتيناهُ الإنْجيلَ فيه هُدًى ونُورٌ وَمُصدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه مِنَ التَّوَرَاةِ وَهُدًى ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقين »(١٦) .

وإذا ذكر القرآن الإنجيل فى كثير من آياته الكريمة ، فإنما يقصد به ذلك الكتاب المقدس الذى أنزله الله على رسوله عيسى ابن مريم ، وهو ذلك الكتاب الذى بشّر به المسيح عليه السلام الناس هَديًا لهم وإصلاحا وتذكيرًا لهم بوجود إله واحد لا إله غيره ، إله موسى وعيسى ومحمد .

فإذا قال بعض ما ينسب إلى المسيحية من زيف فإن المسيحية لا تعترف به وتحاربه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاتختلف المسيحية عن الإسلام فى صفة مريم ، فهى فى نظر الدينين عبد من عباد الله ، بل إن مريم نفسها تقول فى الإنجيل إنها « أَمَة الرب » .

وكما ينفى القرآن وجود صاحبة لله الواحد الأحد ، كذلك المسيحية تنزه الخالق جل وعلا عن أن تكون له صاحبة .

وكما ينفى الإسلام تعدد الآلهة ووجود التثليث ، كذلك تقول المسيحية إنها تنكر التعدد والشرك ، كما تنكر أن يكون لله ولد من صاحبة بتناسل جسدى .

وما أكثر آيات الإنجيل الذى نزله الله على رسوله عيسى عليه السلام ، التى تؤكد هذه الحقيقة الأبدية ، حقيقة وحدانية الله الخالق لكل شىء :

ففى إنجيل متى ٤ : ١٠ (حينئذ قال يسوع ، اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد ، واياه وحده تعبد) .

وفى إنجيل يوحنا ١٧ : ٣٠ (وهذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

وفى إنجيل يوحنا ٥ : ٤٤ (كيف تقدرون أن تؤمنوا ، وأنتم تقبلون مجدا بعضكم من بعض ، والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلبون) .

وفى إنجيل يوحنا ٦ : ٣٨ (وأنا إنسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله) .

وكما أن لب الدين المسيحى هو الإقرار بوجود إله واحد لا شريك له وأن المسيح عيسى بن مريم إنسان أرسله الله للتبشير بهذا الدين ، كذلك اليهودية تقر بوحدانية الخالق جل وعلا :

ففى سفر التثنية ١ : ٥ (ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلا ، الرب إلهنا ، كلمنا فى حوريب قائلا : كفاكم قعودا فى هذا الجبل) .

وفى سفر الأمثال ١٩ : ١٧ (من يرحم الفقير يقرض الرب وعن معروفه يجازيه) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سفر الخروج ١٩ : ٢١ (فقال الرب لموسى ، انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون ، وليتقدس أيضا الكهنة الذين يقتربون إلى الرب لئلا يبطش بهم الرب) .

ثم أنزل خاتم كتبه على رسوله النبى الأمى ، خاتم رسله ﷺ مصدقا لكتب الله ومهيمنا ، وقد لخص الحكيم الخبير فى خاتم كتبه جوهر الإيمان والدين الذى ارتضاه لعباده المؤمنين :

« نَزَّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مصدِّقا لِما بين يَدَيْه وأَنْزَلَ التَّوراةَ والإنجيلَ * مِن قَبْلُ هدًى للناسِ وأنزل الفُرْقانَ إن الذين كفروا بآياتِ الله لهمْ عذابٌ شديدٌ ، والله عزيزٌ ذو انتقامٍ »(١٧) .

« آمَنَ الرسولُ بما أُنْزلَ إليهِ من ربِّهِ والمؤمنون كُلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِه ورُسُلِهِ لانفرِّقُ بين أحدٍ من رسلهِ وقالوا سمعنا وأطعنا غُفرانَك ربَّنا وإليكَ المصيرُ »(١٨) .

ويكشف لنا العليم الخبير المحيط بكل شىء علما ، انحراف بعض أهل الكتاب عن الأخذ بما جاء فيه من الحق ، إما عن سوء فهم للمتشابه من آيات القرآن الكريم فيسيئون تأويله ، وإما عن التواء مقصود بمحكمها ، يشوهون قصده ويحرفون كلام الله ويحولون ماجاء به من الحق طلبا لمنفعة دنيوية عاجلة ، وهم جميعاً لو أتوا القرآن بقلب مفتوح ونية خالصة ، لهداهم الله إلى المعنى الحق للمحكم من آياته ولأرجع المتشككين بما اشتبه عليهم إلى المحكم ولكنهم أصروا على العصيان واستكبروا استكباراً :

« مِنَ الذينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعَصَيْنا واسمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ ورَاعِنَا ، ليًّا بألسِنَتِهِمْ وطَعْنًا فى الدِّينِ ولو أنهمْ قالوا سَمِعْنا وأَطعْنا واسْمَعْ وانظُرنا لكان خيراً لهم وأقْوَمَ ولكِن لَّعنهم اللهُ بكُفْرِهِمْ فلا يؤمنون إلاَّ قليلاً »(١٩) .

« وإنّ منهم لفَريقًا يَلوُون ألسنتَهُم بالكتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتابِ وما هُوَ مِنَ الكتابِ ويقولون هو مِن عندِ الله وما هو مِنْ عندِ الله ويقولونَ على الله الكَذِبَ وهم يعْلَمونَ »(٢٠) .

« فبما نَقْضِهِم ميثاقَهُمْ وكُفْرهمْ بآيات الله وقَتْلِهِم الأنبياءَ بغير حقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يُؤمنون إلاّ قليلاً[٢١] * وبكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتاناً عظيماً[٢٢] * وقَوْلِهم إنّا قتلنا المسيح عيسَى ابنَ مرْيمَ رَسولَ اللهِ وما قتلوه وما صَلَبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لَفِي شكٍّ مِنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلمٍ إلا اتِّباعَ الظَّنِّ وما قتلوهُ يَقيناً »[٢٣] .

« هو الذى أنزلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هُنّ أمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعونَ ما تشابَهَ منه ابتِغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويلَه إلا الله والراسخون فى العلمِ يقولون آمنّا به كلٌّ من عندِ ربِنا وما يذّكّرُ إلا أولوا الألبابِ »[٢٣][٢٤]

ويتناول القرآن الكريم بالتصحيح والتصويب ما أنزل الله من القول الحق فيما اختلف فيه بعض أهل الكتاب وفيما غيّروا فى كتابه بما لم ينزل :

« ما المَسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام انظُر كيف نُبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظرْ أنَّى يُؤفَكونَ »[٢٥] .

« ياأهلَ الكتابِ لاتغلوا فى دِينكُم ولا تقولوا على الله إلاَّ الحقَّ إنَّما المَسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريَمَ ورُوحٌ مِنْهُ فآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهُوا خيراً لكم إنّمَا اللهُ إلَهٌ واحدٌ سُبحانَهُ أن يكونَ له وَلدٌ له ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ وكَفَى باللهِ وكيلاً[٢٦] * لن يَسْتنكِفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبدًا للهِ ولا الملائكةُ المقرَّبُون ومَنْ يستَنكِفْ عنْ عِبادتِه ويستكْبِرْ فسيحْشُرُهُمْ إليهِ جميعاً »[٢٧] .

« وَلْيَحْكُمْ أَهلُ الإنجيلِ بما أَنزَل اللهُ فيهِ ومَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ الفاسقون »[٢٨] .

ويحذر الله أهل الكتاب من عاقبة تكذيبهم بما أنزل الله من آيات ، وينصحهم بألا يتخذوا من العبث بكتب الله سلعة يتاجرون بها ، ويخدعون بها البسطاء ممن أولوهم كل ثقتهم ، وألاَّ يحمّلوا أنفسهم مالا يطيقون من أوزار يحاسبهم الله عليها يوم الحشر الأكيد :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إنَّ الذين يكْتُمونَ ما أَنْزلَ اللهُ من الكتابِ ويَشترونَ به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بُطُونِهم إلاَّ النَّارَ ولا يكَلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامَةِ ولا يـزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ »(٢٩) .

« وَلوْ أنَّهم أَقاموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجُلِهم منهم أُمَّةٌ مقتصِدةٌ وكثيرٌ مِنهم ساءَ ماَ يَعْمَلونَ(٣٠) » .

« قُلْ يا أهلَ الكتابِ لستم على شيءٍ حتى تُقيمُوا التَّوراةَ والإنْجيلَ وما أُنْزِلَ إليكم من ربِّكم ولَيَزِيدَنَّ كثيرا منهم ما أُنْزِلَ إليك من ربِّكَ طُغْيَاناً وكُفْراً فلا تأسَ على القومِ الكافرين »(٣١)

ثم يذكّر العليم الخبير أهل الكتاب بخلاصة مختصرة وبليغة بمعنى إقامة كتب الله كما أراد الله :

« إنّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصَّابِئون والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللّهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنُونَ »(٣٢) .

ثم يشبّه الله أهل الكتاب الذين لا يعملون بما جاء فيه ، بما يأبى كل إنسان عاقل أن يكون به شبيها :

« مَثَلُ الّذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثُم لَمْ يَحملوُها كمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسفارًا بِئْسَ مَثَلُ القوْمِ الذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لايَهْدِى القَوْم الظَّالمينَ»(٣٣) .

ويمثل الله من اختلفوا فى تأويل آيات الله البينات وكلامه الحق ، بطائفة أعماها الله عن الحق فتنازعت فيما بينها وأصبحوا فيما بينهم أعداء يكنّ البعض منهم البغض والكراهية للبعض الآخر ، وما هى إلا فتنة يرمى بها الله من كذّب بآياته :

« ومِنَ الذين قالوا إنّا نَصارَى أَخَذْنا مَيثاقَهمُ فَنَسُوا حظًّا ممّا ذُكِّروا بِهِ فأغْرَيْنا بينهُمُ العَداوةَ والبَغْضاءَ إلى يومِ القيامةِ وسوف ينبئُهُمُ اللهُ بما كانوا يَصْنَعونَ »(٣٤) .

ثم ينزل الله خاتم كتبه ، قرآنه الكريم ، يكشف به ما أخفى أهل الكتاب ما أنزل اليهم وليوضح ما التبس عليهم وما اختلفوا فى تأويله :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسُولُنا يُبَيِّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفونَ مِنَ الكتابِ ، ويعفُو عن كثيرٍ ، قد جاءكمْ مِن اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ »(٣٥) .

« وما أنزلنا عليكَ الكتاب إلاَّ لِتُبيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيهِ وَهُدًى ورحمةً لِقوم يؤمنونَ »(٣٦) .

ومن نعم الرحمن على أهل القرآن المبين ، أن بقى هذا الكتاب كما هو لم يتبدل فيه حرف أو كلمة ، ولم تتقدم آية عن آية أخرى أنزلها الله قبلها بل بقى القرآن بآياته كما نزّلها الله نصا ومعنى وترتيبا لأن الله قد صدق وعده بحفظه ، وهو خير الحافظين ، من أى عبث وأبعده عن أى هوى ، لأنه خاتم كتبه إلى يوم الدين ، أنزله على صفيه ونبيه الأمين سيدنا محمد ﷺ ليبين ما أسىء فهمه مما سبقه من كتب سماوية ، وليصحح ما حُرِّف من كلام الله سبحانه وتعالى :

« إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحَافِظون»(٣٧) .

« بَلْ هو قرآنٌ مَجِيدٌ فى لَوْحٍ محفوظٍ »(٣٨) .

« تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفُرْقانَ على عبْدِهِ لِيكُونَ لِلْعَالمينَ نَذِيرًا »(٣٩) .

ولا يزال القرآن الكريم على ما أنزله العزيز الحكيم لم يتغير ولم يتبدل ، ولا يزال على إعجازه وسموه فوق أى عبث ، فلا يأتيه الباطل من أى جهة ولا يقدر على أخذه بالتحريف أى مخلوق مهما أوتى من علم أو مكر أو خبث :

« فَلْيأتوا بحديثٍ مِّثله إنْ كانوا صادِقِينَ »(٤٠)

« قلْ لَئنِ اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ ولو كان بعضُهُمْ لبعضٍ ظَهِيرا »(٤١) .

هذا هو القرآن الكريم خاتم كتب الله ، أنزل للبشر كافة بدين الحق وهو دنيا ودين ، لا يحرّم على الناس من متاع الدنيا الا ما خالفوا به الحق ، وشرع الله فيه للناس كافة ما هو أحسن فى علاقة الفرد بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره من الناس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل هو دستور البشرية الأزلى وسيظل بصدقه وبإحاطته وشموله ، خير ما يلجأ إليه البشر فى حل مشكلاتهم للأخذ بالتى هى أقوم ، فيظل بالسلام الأرض ويبث فى الناس المحبة والوئام .

« وأنّ هذا صِراطِى مستقيمًا فاتّبعوهُ ولاتتبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُم عن سبيلِه ذَلِكم وصّاكم بِهِ لعلكم تَتَّقُونَ »(٤٢) .

ألا يحق لنا بعد هذا أن ننادى بخاتم كتب الله دستورا لمن آمن بالله واليوم الآخر فى العالم أجمع ، فيدين البشر بدين الحق الذى شرعه الله للناس كافة فى قرآنه الكريم ؟ أما آن الوقت لندعو لدين الله القيّم ، بالحق وبالحوار الهادىء والإقناع بالنص والتفسير والمنطق السليم حتى تكون هذه الأمة ، بحق ، خير أمة أخرجت للناس منذ أن كان الناس ، أمة تدعو للمعروف وتنهى عن المنكر ؟ وهلا بدأنا بأنفسنا نحن والتزمنا بهذا القرآن الكريم ؟ فنعمل بهذا الدستور السماوى ، نصا وروحا ؟ .

ألاَ إنّ هذا هو أمل كل من آمن بالله واتقاه حق تقواه ، إيمانه برسله وكتبه وبالآخرة ويوم الحساب ، ولينصرن الله من نصره ونصر دينه :

« إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ وما اختلف الذين أوتوا الكتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءهم العِلمُ بغياً بينهم ومَنْ يكفُرْ بآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سريعُ الحِسَابِ »(٤٣) .

« فإن حاجّوكَ فَقُل أسلَمْتُ وجهِىَ لِلّهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ وقل لِلَّذِينَ أُوتوا الكتابَ والأمِّيِّينَ أأسْلَمْتُمْ فإنْ أسلَموا فقد اهتَدوا وإن تَوَلَّوْا فإنما عليك البلاغُ والله بصيرٌ بالعِبَادِ »(٤٤) .

« ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلام دِينًا فلن يُقبَلَ منهُ وهوفى الآخِرَةِ مِن الخاسرينَ »(٤٥)

« كيف يَهدى اللهُ قوماً كفروا بعدَ إيمانِهِمْ وشَهِدُوا أنّ الرسولَ حقٌّ وجاءَهُمُ البيِّناتُ ، واللهُ لاَ يَهْدِى القومَ الظالمينَ »(٤٦) .

« وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يؤْمِنُ باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يشترون بِآياتِ الله ثمناً قليلاً أولئك لَهُمْ أَجرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ»(٤٧) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانـــى

الإيمان وشعائر الاســـلام

المؤمن المسلم هو من أسلم وجهه وأمره لله تعالى ورضى بقضائه وقدره والمؤمن المسلم من اتقى ربه وصدق فكره وقوله وعمله ، فلا يعمل إلا صالحـا ولا يقول إلا حقاً .

والمؤمن المسلم من سَلِم الناس من يده ولسانه ، وعامل النـاس بما يُحبُّ أن يعاملوه به .

والمؤمن المسلم من سعى إلى طلب الرزق بعد توكله على الله وحده .

والمؤمن المسلم من جاهد بنفسه وبماله فى سبيل نصرة عقيدته والدفاع عن الحق ومحق الظلم والعدوان .

والمؤمن المسلم من صبر فى السراء والضراء ، فلا يغره بنفسه مال أو سلطان ولا يجزع ولا يهتز أمام النوازل والأحداث .

وليس مؤمناً ذلك القاعد المتخاذل الجزوع الهلوع ولا المتردد المتعالى المغرور .

والمؤمن المسلم هـو قبل كـل هذا من آمن بـالله وحده ، وبكتبـه وخاتمهـا القرآن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكريم ، وبرسله وخاتمهم سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ ثم أقام إيمانه على أركان الإسلام الخمسة وهى :

١ - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .
٢ - إقام الصلاة لله تعالى وحده ، وبأركانها التى حددت فى القرآن والسنة .
٣ - إيتاء الزكاة .
٤ - صوم شهر رمضان .
٥ - حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وذلك عملا بالحديث الشريف .

(بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) .
صدق رسول الله .

وقد شرع الحكيم الخبير هذه الفرائض لدينه الذى ارتضاه للناس كافة فى قوله : «إن الدين عند الله الإسلام» لما فى هذا الدين وشرائعه من خير وصلاح للبشر أجمعين ، وهو سبحانه وتعالى الغنى بذاته عن العالمين .

هذه الشعائر الإسلامية الخمس التى يقوم عليها دين الحق وخاتم الأديان السماوية ، هى عبادة لله وتذكرة للمؤمن بخالقه إذا ما أقيمت على الإخلاص والتقوى . وهى فى جوهرها تربية للإنسان على صفات وأخلاق تنعكس على سلوكه أمام الله ومع نفسه ومع الناس ، فيخشع لخالقه ويصدق مع نفسه ومع غيره من الناس .

ومن ثم رأينا لزاما علينا أن نبين فى كتابنا هذا شروط كل فريضة من هذه . . الفرائض وحكمة الخالق فى فرضها . . حتى يؤديها المؤمن المسلم على وجهها الصحيح فيفيد ويستفيد ، يفيد الناس بالعمل الصالح والقدوة الحسنة ويستفيد رضوان ربه فى الدنيا والآخرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولا - شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله :

وهى البداية التى لابد منها لكل من شرح الله صدره للإسلام ، يقولها عن إيمان صادق ونية خالصة وبقلبه قبل لسانه ، يقولها طواعية وعن اقتناع تام ، لا تحت تأثير أى ضغط ، ترهيباً كان هذا الضغط أو ترغيباً .

فليس من الإيمان إعلان الشهادتين باللسان طمعاً فى منفعة دنيوية عاجلة أو دفعاً لخطر متوقع ، وإلا كان مثله كمثل الكثير من المنافقين أيام الرسول ﷺ ، وهم الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه وتعالى :

«ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ آمنّا باللهِ وباليوم الآخِرِ ، وما هُم بِمُؤمِنين * يُخادِعُونَ اللهَ والذين آمنوا وما يَخْدَعونَ إلاّ أنفُسَهُمْ وما يشعُرُون[٢] * «فى قُلوبِهِمْ مَّرَضٌ فزادهُم الله مَرَضاً ولهمْ عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكْذِبونَ»[٣]

«وإذا لَقُوا الذّينَ آمنوا قالوا آمَنّا وإذَا خَلَوْا إلىَ شياطينِهِمْ قالوا إنّا معكم إنَّمَا نحن مُسْتَهْزِءُونَ»[٤] .

إن مثل هذا الإيمان الذى جرى به اللسان ولا أثر له فى قلب صاحبه ، ليس إيماناً ولا إعلانا للشهادة كما أرادها المولى جل وعلا ، ولا أثر له ولا تأثير فيما يصدر من صاحبه من أقوال أو أفعال .

أما الشهادة بوحدانية الخالق وبصدق الرسالة وأمانة الرسول ، فهى جوهر وليست مظهراً ، هى شهادة وعهد صادق بين العبد وربه ، تصدر من القلب قبل أن يجرى بها اللسان ، هى عهد بين العبد وربه على الإيمان الراسخ بأن خالق الكون ومدبره هو إله واحد لا إله إلا هو . هى عهد من المؤمن بإسلام أمره لله وحده والتوجه إليه بالعمل الصالح كسباً لرضوانه واتقاء لغضبه ، واللجوء إليه وحده طلباً للعون والتوفيق ، والرضا بقضائه وقَدَرِه ، وشكره وحده فى السراء والضراء ، فهو سبحانه وحده خالق الكون والقائم عليه ومدبره ومسيره بالحكمة والعدل والعلم :

«شَهِدَ الله أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ[٥]» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وإلهُكُم إلهٌ واحدٌ لا إلهَ إلا هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ[٦]» .

هذه أولى الشهادتين ، شهادة وإقرار وعهد وميثاق .

أما ثانية الشهادتين فهى الشهادة بأن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، وهى إقرار من المؤمن وعهده لمحمد الصادق الأمين بصدق ما يقول من وحى ربه وشهادة بتصديقه والعمل بما جاء به من عند الله .

«قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً الذى لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ لا إلَهَ الاّ هُوَ يُحْيِى ويُميتُ فآمِنوا باللهِ ورسولِه النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الذى يؤمِنُ باللهِ وكلِماتِه واتَّبِعُوهُ لعلَّكم تَهْتَدونَ[٧]» .

«فآمِنوا باللهِ وَرَسولِهِ والنورِ الذى أنْزَلْنَا ، والله بما تعْمَلونَ خبيرٌ[٨]»

«كيفَ يهدِى اللهُ قوماً كفَروا بعدَ إيمانِهم وشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجَاءَهُمُ البيِّنَاتُ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالمينَ»[٩] .

«والَّذِين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وآمنوا بما نُزِّلَ على مُحمدٍ وهو الحق من ربِّهم كفَّرَ عنهم سَيِّئاتِهم وأصْلَحَ بَالَهُم[١٠]» .

الحكمة الإلهية فى فرض الشهادتين :

١ - فى شهادة أن لا اله إلا الله شهادة بالتوحيد ، وحدانية الخالق المبدع ، الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، وهى شهادة بوحدة الكون الذى خلقه الله وحده ، والإيمان بوحدة الكون ووحدة الخالق إيمان بعظمة الخالق ومحكم تدبيره ورعايته لما خلق ، إيمان برحمة الخالق بخلقه وعونه ورعايته لهم بما ذلل لهم ما فى الأرض وما فوقها من نعم كلها خير ومنفعة للإنسان ، وفى ذلك إيحاء للإنسان بعمل الخير والإحسان لغيره لأن الخالق خيّر ولا يصدر منه إلا كل خير للناس ما ساروا على صراطه المستقيم فى فكرهم وقولهم وعملهم ، والإيمان بأن الله خيّر إيحاء للمخلوق بأن ما يجيئه من خيْر إنما هو من عند خالقه ، فيتوجه إليه وحده بالحمد والشكر ، وأن ما يلحق المخلوق من شر إنما هو نابع من نفسه فيعود عليها باللوم وبالموعظة والضبط ، ويتجه قبل هذا إلى ربه يستغفره ويتوب إليه ، وفى هذا وذلك حث للمؤمن على فعل الخير وتجنب الشر وقاية لنفسه ووقاية لمجتمعه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى شهادة أن لا إله إلا الله هداية للمشركين بالله بما ابتدعوا من آلهة لا تنفع ولا تضر ، إنما اختلقوها بفكرهم السقيم الذى ذهب بنفوسهم شعاعاً فى مهاوى الضلال والرذيلة والفساد ، إلى أن هداهم الله وأرسل إليهم رسولا منهم يحدثهم بلغتهم ويدعو إلى الإيمان بوحدانية الخالق ، فاطمأنت قلوبهم وهدأت نفوسهم واستقرت أفكارهم واتحدت كلمتهم فى وحدانية الوجود فى إله واحد هو الخالق المبدع لأول الخلق وإليه مرجعهم . وبإحساسهم بحكمة الخالق فيما خلق وإحاطته بخلقه وهم ليسوا له بمبصرين ، إيحاء للناس بالخشوع لتلك القوة القادرة الخفية وتقواها ورهبتها وإسلام الأمر كله لله وحده ، فيطيعوا أوامره بالمعروف ونواهيه عن المنكر ويتقوا الله فى سرهم وعلانيتهم فتصفوا نفوسهم وتْنقّى ضمائرهم ، ولا يصدر عنهم إلا كل طيب كريم .

٢ - وفى شهادة المؤمنين بأن محمداً رسول الله ، شهادة منهم بتصديق النبى المصطفى فى كل ما يبلغهم من وحى ربه مما نزل به عليه جبريل عليه السلام ، وأنه الرسول الذى اختاره الله واصطفاه لتبليغ الحق للناس كافة ، لا ينطق عن الهوى وأنه الرسول الأمين الذى يبلغهم بكلام الله بلا تحريف أو سهو ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى وصفه الله بالهداية والاستقامة والصدق .

«والنَّجْمِ إذا هَوَى * ماضَلَّ صاحِبُكُم وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ، علّمَهُ شديدُ القُوَى»(١١) .

فلا مشاقة مع رسول الله الأمين ، ولا تكذيب لمحكم التنزيل ، ولا جدال ولامجادلة مع هذا النبى الأمى فيما يتلو من تلك الآيات البينات ، وبذلك الأسلوب القرآنى المعجز المحيط بكل مافى الكون ، ما دق فيه وما كبر ، وما ظهر وما بطن ، أنزله الخالق جل وعلا وبيّن فيه ما عرفوا ومالم يعرفوا من قبل وما يكشف الخالق للخلق عنه ما شاء لهم معرفته من أسرار كونه اللانهائى ، وفى شهادة المؤمن بأن محمداً رسولُ الله ، ميثاق معه على الإيمان بما آتاهم من الحق وعهد له بالتعاون لإعلاء كلمة الحق وشد أزره فى الدفاع عن دين الحق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا : الصلاة :

بعد أن يسلم المؤمن لله تعالى ويعلن الشهادتين يكون قد التزم بعهد الله على أن يؤدى حقه عليه بإقامة شعائر الإسلام ، والمظاهر العملية لهذا العهد هو أداء العبادات التى فرضها الخالق جل وعلا ، هذه الشعائر هى الصلاة ، والصوم والزكاة ، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

وتأتى الصلاة فى المرتبة الأولى بين هذه العبادات .

ولأهمية هذه الشعيرة عند الله ، لم يعف منها مسلم ولا مسلمة مهما كانت ظروفهما ، فلا يحول دون أدائها فقر ولا ضعف ولا مرض ولا سفر ، بل لم يعف منها المسلم وقت الحرب ، كما سنبين فيما بعد ، ولهذا فقد يسّر الرحمن للمسلم أداءها بما يستطيع من قدرة ووسائل ، وهذا دليل قاطع على منزلة الصلاة عند الله ، لما فيها من عبر وفوائد تعود على مؤديها بالخير والصلاح فى دنياه وآخرته .

١ - ففى الصلاة والعبادة لله وحده ، خالق الكون ومدبّره ومسيّره ، المنعم على خلقه وراعيهم وهاديهم إلى صراطه المستقيم ، تذكرة ما بعدها تذكِرة للعبد بربه ، وهو إذْ لا يرى من يصلى له إنما يشعر ويحس بوُجودِه فى كِيان نفسه وفى كل شىء فى الوجود ، وهو سبحانه الذى يُبصِر ولا يُبْصَر ، وفى أداءِ هذه الشَّعِيرة فى أوقاتها المعلومة كل يوم يقف أثناءها المخلوق أمام الخالق طائعاً مختاراً مسلماً له ، إذْ يركع لخالِقِه ويسجد ويضرع متزلفا متطهراً خاشعاً ، فى كل هذا تأكيد لإيمان المؤمن بربوبية خالقه وعظمته وقوته وتسبيح بحمده وشكره على أنعمه ، وهو سبحانه وتعالى غنى عن كل هذا، إذْ يسبح له كل شىء فى السموات والأرض ، إنما هى وسيلة فرضها الله على المؤمنين لتطهرهم روحاً وجسداً وتربيهم التربية الإسلامية التى أرادها الله للمسلم .

تلك التربية التى لا تهدف لصلاح المسلم روحيا ووجدانيا فحسب بل لإصلاح بدنه أيضا :

(أ) ففوائد الصلاة لصحة البدن فسيولوجيا تكمن فى تلك الحركات البدنية التى يمارسها المصلى فى ركوعه وسجوده ثم وقوفه عدة مرات متتالية تقوية لعضلاته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزيادة احتراق المواد الغذائية فتمنع تراكم الدهنيات التى تؤدى إلى تصلب الشرايين وضيقها وخاصة شرايين القلب التاجية وشرايين المخ ، وبذلك تكون الصلاة سبيلا إلى القوة الحقة لروح الإنسان وجسده .

(ب) والوضوء وهو ملازم للصلاة تطهير للبدن ووقايته من الأمراض ، بل إن لفظة الوضوء نفسها مشتقة من الوضاءة أى النظافة والحسن .

فيبدأ المتوضىء بغسل اليدين ومابين أصابعهما فيزيل ماقد يكون قد علق بهما من أتربة وميكروبات ويهيئهما لتنظيف بقية أجزاء الجسم ، ثم يغسل الفم لإزالة ماقد يكون قد علق به أو تراكم فيه من الميكروبات والتخمرات التى قد تتسرب من الفم إلى داخل البدن ، ثم يغسل الأنف ليزيل ماعلق به من غبار وقاذورات أثناء عملية التنفس كما يزيل إفرازاته فى حالات الزكام والجيوب الأنفية ، ثم يأتى بعد ذلك غسل الوجه والعينين فيقيهما من أمراض العيون وبعض الأمراض الجلدية ، ويغسل الأذنين يمنع تراكم المادة الشمعية التى قد تؤدى إلى ضعف السمع واضطراب توازن الجسم ، ويمسح الرأس بالماء يزيل ماقد يعلق به أو يتخلل شعره من أتربة وميكروبات . وأخيرا تغسل القدمان وأصابعهما وهما من أكثر أجزاء الجسم تعرضا لتكاثر الجراثيم التى تحتمى وتنشط بين الأصابع وتحت مايلبسه الإنسان من أحذية وجوارب .

أما الهدف الروحى لفرض الوضوء فهو تطهير وتحصين لأدوات الحركة والحس فى الإنسان وتجنيبها ماقد يمس تقوى الإنسان والبعد بهما عن الزلل فى مهاوى الخطأ فغسل اليدين إيحاء بأن تظلا طاهرتين فى العمل والأخذ والعطاء فلا يدنسهما بإيذاء الغير بالعدوان بغير حق أو اغتصاب حقوق الناس عن طريق السرقة أو الرشوة بل تكونان أداتين للعطاء وعونا للغير ، وغسل الوجه تصفية له من شوائب الغضب والانفعال فيظل هادئا وضيئا ، وغسل العينين تطهير لهما من نظرات الحقد والحسد والفجور ، وغسل الأذنين وتطهيرهما إيحاء بعدم إصغائهما إلى اللغو الفارغ أو الاستماع إلى قول السوء والنفاق ، وغسل الفم تطهير له من الكذب والغيبة والتفاخر والسب والصياح الأهوج .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغسل القدمين تطهير لأداة حركة وانتقال الإنسان من مكان إلى آخر فلا يسعى بهما إلا من أجل العمل الصالح له ولأفراد مجتمعه .

وما أبلغ كتاب الله فى بيانه لكل فضائل الوضوء فى تلك الآية المحكمة :

« يأَيُّها الّذين آمَنوا إذَا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلوا وجوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وامسَحوا بِرؤوسِكُمْ وأَرجُلَكُم إلى الكعْبَيْنْ وإن كُنتمْ جُنُباً فاطَّهّروا وإن كنتم مَرضَى أو على سَفَر أو جاء أحَدٌ مِنكم من الغائطِ أو لامَسْتُمُ النِّساءَ فلم تجدوا ماءً فتَيَمَّمُوا صَعِيدا طيّباً فامسَحوا بِوُجُوهِكُم وأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مايُريدُ اللهُ ليَجعلَ عليكُم مِن حَرَجٍ ولكِنْ يريدُ ليُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكمْ لعلَّكمْ تَشْكُرونَ »[١٢] (المائدة ٦)

٢ - وفى توجه المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعلى اختلاف أوطانهم نحو قبلة واحدة يتجهون إليها فى صلاتهم ، وهى الكعبة المشرفة ، تكريم لهذا المكان الطاهر الذى أقيم فيه أول بيت يعبد فيه الله وحده ، بأمر من الله إلى نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام ، وتوحيد لقصد المسلمين وهدفهم :

« إنَّ أوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلذى بِبَكَّةَ مبارَكاً وهُدًى للعالَمِينَ »[١٣]

وهو ذلك المكان الذى أمر الله نبيه الكريم ومن آمنوا برسالته بالتوجه إليه واستقباله فى صلاتهم ، بعد أن كانوا يتوجهون فى صلاتهم وجهة بيت المقدس ، ولكى يرضى رسوله ويخرجه من حيرته :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجْهِكَ فى السّماءِ فلَنُولِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرضاها فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرَامِ وحيثُما كُنتم فَوَلُّوا وجُوهَكُم شَطْرَهُ وإنَّ الّذين أوتُوا الكتابَ لَيَعْلَمونَ أنه الحقُّ مِنْ ربِّهم ومَا اللهُ بِغافلٍ عمّا يعمَلونَ »[١٤]

وتغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بمكة يتضمن كثيرا من المعانى . منها : اختبار مدى إيمان المؤمنين وتقواهم وطاعتهم لله ولرسوله ، وكشف مايصنع ضعاف الإيمان وترددهم :

« وما جَعَلْنا القِبْلَةَ التى كُنْتَ عليها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرّسولَ مِمَّن يَنقلبُ على عَقِبَيْهِ »[١٥] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنها إفحام أهل الكتاب من يهود ونصارى الذين تباهوا على المسلمين وتفاخروا ، إذْ هم يخالفون دينهم ولكنهم يتخذون من أماكنهم المقدسة قبلة لهم :

« سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما ولاّهم عن قِبْلَتِهِم التى كانوا عليها قُلْ لله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يشاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ »(١٦)

٣ - تذكير المؤمن بربه فى جميع ظروف حياته ، وترسيخا لهذا الإيمان وتأكيده فى قلب المؤمن مهما صادفه من متاعب الحياة وقسوتها ، ومهما حل به من مصائب قد تهز ضعاف الإيمان هزا عنيفا فتصرفهم عن ذكر الله والرجوع إليه والتماس عونه والاستسلام لقدره ، ففى جميع الأحوال يجب على المؤمن ان يتجمل بالصبر الذى هو قمة الإيمان بالله وإسلام الأمر لمشيئته إيمانا من المؤمن بحكمة ربه وعدله ورحمته ، هذا الصبر الذى أمر الله عباده المؤمنين بأخذ أنفسهم به ليزدادوا به قوة وصمودا أمام أحداث الدنيا ، حلوها ومرها :

« يابُنَيَّ أقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بالمَعْروفِ وانْهَ عَنِ المُنكَرِ واصبِرْ على ماأصابكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ »(١٧) .

« والذينَ صَبَروا ابْتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ و أَنْفَقُوا مِمـاً رَزَقناهُم سِـرًّا وعَلانَيَةً ، ويَدْرَءُونَ بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ أَولَئِكَ لَهُمْ عُقْبىَ الدَّارِ »(١٨) .

٤ - الصلاة تنأى بالمؤمن عن الغرور بمتاع الدنيا والاستعلاء على غيره من خلق الله وظلمهم والطغيان فيهم ، حين يقف بين يدى الواحد الديان ، خاشعا مكبرا متزلفا ، ومتجردا ومنصرفا عن كل متاع الدنيا وزخرفها ، إيمانا منه بعظمة الله وجلاله وقدرته وفضله على العالمين ، وإيمانا بأنَّ العزة كلها لله وهو سبحانه الغنى المغنى .

« يا أَيُّها الذِّينَ آمَنوا لاتُلهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ولا أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسِرونَ »(١٩) .

« قد أَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ * الَّذينَ هُمْ فى صَلاتِهم خاشِعون »(٢٠)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الَّذين إنْ مكَّنَّاهُم فى الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتوُا الزكاةَ وأمروا بالمعـروفِ ونَهَوْا عنِ الْمُنكَرِ ولِلهِ عاقبةُ الأمور »(٢١) .

« الَّذين يُقيمونَ الصّلاةَ ومِمَّا رزقناهم يُنْفِقونَ »(*) « أولئك هُمُ المؤمنونَ حقًّا لَّهُمْ درجاتٌ عندَ رَبِّهم وَمغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَريمٌ »(٢٢) .

٥ - الصلاة إذا ما أديت بصدق وابتغاء مرضاة الله وحده وتقواه ، تـطهير للنفس وتحصين لها من وسوسة الشيطان ، وحين يقف المرء فى صلاته ، خمس مرات كل يوم ، بين يدى خالقه خاشعا مستسلما ومتوجها إليه بالذكر والعبادة إنما يجنب نفسه ماحرّم الله من فواحش ومنكرات :

« اتْلُ ما أُوحِيَ إليكَ مِنَ الكِتابِ وأَقمِ الصَّلاةَ إنَّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ وَلَذِكْرِ اللهِ أكْبَرُ واللهُ يعلمُ ماتَصْنَعُونَ»(٢٣) .

٦ - الصلاة ليست مجرد حركات ظاهرية تؤدَّى فيصبح المصلى مؤمنا ومسلما لله حقا أو حائزا لرضائه وغفرانه ، وهو سبحانه فى غنى عن العالمين .

إنما الصلاة جوهر ، هى تذكرة لمن يذكر للقيام بصالح الأعمال والبر بالناس والبعد عما نهى الله ، لذلك نجد من محكم التنزيل ، أن أمر الله للمؤمنين بالصلاة يأتى دائما مقرونا بالأمر بصالح الأعمال ، فرضا الخالق على المؤمن لايتأتى بمجـرد العبادات الحركية ، بل أوجب الله على المؤمن الصلاح فى سلوكه مع الناس وهذا ما يأخذ به الله المصلين الذين يخشعون فى صلاتهم ويتقون ربهم ويتجردون من هوى النفس ومن يذكر ربه بالصلاة فى أوقاتها كل يوم لابد أن يذكره فى تعامله مع الغير فى حياته اليومية وينفذ ما أمر ربه به وينتهى عما نهى عنه ، وإلا كانت الصلاة تظاهرا بالتقوى والصلاح فحسب ، يخدع بها صاحبها الناس وهو خادع نفسه والله بصير بما يعمل الناس .

« إنَّ الَّذينَ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصَّلاةَ وأَنْفقُوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا وعَلانيةً يَرْجُونَ تِجارةً لنْ تَبُورَ »(٢٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ليسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بـاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والملائِكَةِ والكِتابِ والنَّبيِّينَ وآتى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفى الرِّقابِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إذا عَاهَدوا والصَّابِرِينَ فى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أولئِكَ الَّذِين صَدَقُوا وأولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ (٢٥) .

«بسم الله الرحمن الرحيم»

« أَرَأَيْتَ الذى يُكذِّبُ بالدِّينِ * فَذَلكَ الَّذى يَدُعُّ اليَتيمَ * ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلمُصَلِّينَ * الَّذينَ هُمْ عن صَلاتِهِم سَاهونَ * الَّذِينَ هُمْ يُراءُونَ * ويمنعونَ الماعُونَ(٢٦) . (صدق الله العظيم)

٧ - فى صلاة الجمعة وفى صلاة الجماعة ، حيث يقف المسلمون فى صلاتهم صفوفا منتظمة متراصة وفى خشوع واستسلام وعلى قدم المساواة أمام خالقهم تدعيم لقوة المسلمين وتوثيق لترابطهم ومساواة بين أفراد الأمة الإسلامية حيث لا مقام لطبقة ولا تعال وبغير تفضيل لأحد منهم على غيره إلا بالتقوى والصلاح .

وفى اجتماع المسلمين فى موعد محدد كل أسبوع هو ظُهْر يوم الجمعة مايشبه اجتماعا بين الإخوة على المحبة والتآخى والتشاور فيما يعود عليهم جميعا بالنفع ، وفى خطبة الجمعة مجال طيب للوعظ والإرشاد وتناول مشاكل الساعة بالشرح والتعليق بما يبصّر المسلمين بشئونهم وشئون من حولهم .

« والّذين استجابوا لربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ وأمْرُهُم شورى بَيْنَهم ومِمَّا رَزَقْناهم يُنْفقونَ »(٢٧) .

« ياأيُّها الّذين آمنَوا إذَا نُودىَ للصّلاةِ مِن يَوْم الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْر الله وذَرُوا البَيْعَ ، ذَلكُم خَيْرلكم إنْ كُنتم تَعْلمُونَ »(٢٨) .

« فإذا قُضِيَتِ الصّلاةُ فانْتَشِروا فى الأرضِ وابتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كثيراً لعلّكم تُفْلِحونَ »(٢٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا : الصوم :

الصوم فى اللغة هو الإمساك أى الامتناع عن عمل شىء ، ومنها الصوم عن الكلام : « فَكُلِى واشْرَبِى وقَرِّى عَيْناً فإمَّا تَرِينَّ مِنَ البَشَرِ أحَداً فقولى إنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أكلِّم اليوم إنْسِيًّا »(٣٠) .

والصوم كفريضة دينية إسلامية ، فرضها الله ، على كل مسلم ومسلمة يزاولانها فى شهر معلوم هو شهر رمضان من كل عام وحدد فيه الصيام من فجر كل يوم من أيام هذا الشهر إلى غروب شمسه ، يمسك فيه الصائم نفسه أى يمتنع عن كل مايدخل جوفه من طعام أو شراب والامتناع عن الرفث إلى النساء .

والصيام بهذا المعنى الدينى لم يؤمر به المسلمون وحدهم ، بل أمر الله به أمماً أخرى من أهل الكتاب .

« يـا أيُّها الّـذين آمنوا كُتب عليْكمُ الصِّيـامُ كما كُتِبَ عـلى الَّذينَ من قبلِكُمْ لعلّكُمْ تَتَّقُونَ »(٣١) .

بل إن الصيام قد زاوله غير أهل الكتاب إذْ زاوله بعض قدماء المصـريين واليـونان والهنود ، ولكنه كان فى نظامه وطقوسه وأهدافـه غير هـذا الصوم الـذى فرضـه الله على المسلمين ، بل كان نوعا من الرياضة النفسية والروحية التى نادى بهـا قدمـاء الفلاسفـة والزهاد .

إن الصوم فى الإسلام يختلف عن صوم السابقين من أهل الكتاب وغيرهم من حيث مواقيته ومدته ونظامه وموانعه ومبطلاته ومبيحات الإعفاء منه .

فقد حدد الله لصوم المسلمين شهر رمضان من كل عام هجرى لأنه الشهر الذى باركه الله بإنزال قرآنه الكريم فيه على نبيه محمد ﷺ نورا للناس وهداية ، فهو بذلك شهر النور وأكرم شهور السنة ، وفى صيامه تذكرة للمؤمنين بـربهم وَتَقَرُّبٌ إليـه بالعمـل الصالـح والتقوى .

وكان فرض صوم رمضان فى العام الثانى من الهجرة النبوية .

« شَهْرُ رَمضان الّذى أُنْزِلَ فيه القُرآنُ هُدًى للنَّاس وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَان فَمَّن شَهِدَ منكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كان مَريضا أوْعَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيّام أخَرَ يُريدُ اللهُ بكُمُ اليُسْـرَ ولا يُريـدُ بكُمُ العُسْرَ ولتُكْمِلُوا العـدَّةَ ولتُكَبِّـرُوا الله عـلى مـا هـداكم ، ولَعلّكم تَشْكُرون »(٣٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو ليس صياما طول اليوم بل فى وقت منه معلوم ، حدده الله فى محكم تنزيله بما لايدع مجالا لأى تأويل أو تفسير ، وفيما عدا هذه المدة المحددة فى كل يوم من شهر رمضان ، أباح الله للصائم مزاولة حياته العادية من طعام وشراب ، ورفث ، من غروب شمس هذا اليوم إلى مطلع فجر اليوم التالى .

« أُحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نسائِكُم هُنَّ لباسٌ لكم وأنتُم لباسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أنَّكُم كُنتُم تَخْتانونَ أنْفُسَكُم فتابَ عليكُم وعفَا عَنْكُم فالآن باشروهُنَّ وابْتَغُوا ما كتب اللهُ لكُم وكُلُوا واشربوا حتى يتبين لكم الخَيْطُ الأبْيضُ منَ الخَيْطِ الأسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلى الليل ولا تُباشِرُوهُنَّ وأنتم عاكفون فى المساجد تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلاتَقْرَبوها كذَلِكَ يبين اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلَّهُم يَتقُونَ »(٣٣) .

والدين الإسلامى دين يسر لاعسر ، فرضه الله سبحانه وتعالى لنفع الناس وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ومن ثم ترفق الرحمن بعباده المؤمنين ، فأعفى من الصيام المريض والمسافر إعفاء موقوتا بوقت العجز عن تحمل مشاق الصيام مع مشاق المرض ومشاق السفر ، مع بقاء الصيام دينا يوفيه المفطر لربه فى أى وقت آخر من أوقات السنة ، بل زاد الرحمن بعباده رحمة وتيسيرا فأعفى منه إعفاء دائما من قدر على الصيام ولكن فى صيامه خطر على حياته مع التكفير عن الإفطار بإطعام المسكين المحتاج ، ومن لم يستطع لهذا التكفير سبيلا بسبب شدة فقره وعوزه فإن الله غفور رحيم .

« أَياماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كانَ منكم مريضاً أو علَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيّامٍ أُخَرَ وعلى الّذين يطيقونه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فهو خَيْرٌ لَهُ ، وأن تصوموا خيرٌ لكم إنْ كنتم تَعْلَمونَ »(٣٤) .

حكمة الصـــوم :

١- الصوم كغيره من أنواع العبادات التى فرضها الله على المسلمين ، يؤدى به الصائم حق العبودية لله والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه . ولذلك فإن الصوم يربى فى الصائم إرادته ويقويها ويشحذها . وله أثره فى نفس الصائم ، فهو يصفيها ويوجهها إلى الخير يبذله الصائم إلى إخوانه فى الدين اعترافا بفضل ربه وابتغاء رضوانه ، لا انتظارا لجزاء مادى ولا طلبا لشكر ، وبذلك تتآلف قلوب المسلمين وتصفو نفوسهم ، والصائم فى شهر رمضان إذ يتعبد لربه ويتقرب إليه وينفذ مشيئته بالصوم ، عليه أن يكثر من تلاوة ماتيسر من آيات القرآن الكريم تذكرة وعظة ، فقراءة القرآن أثناء الصيام والزهد فى ملاذ الدنيا وصفاء النفس أنفذ إلى قلب قارئه وعقله ، تملأ قلبه بالإيمان وتضىء عقله بفهم آيات الله البينات واستجلاء مقاصدها وتذوق حلاوتها ، ومن ثم يسير على هديها فى حياته العامة والخاصة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢- الصوم امتحان لتقوى المؤمن ومدى إخلاصه لربه ودينه لأنه من العبادات التى ، لايعلم حقيقتها إلا الله ، وهو عبادة غير ظاهرة ، فالصائم ينوى الصيام ويمتثل لأحكامه وينفذ ما أمر الله به بعيدا عن أعين الناس ، ولا رقيب عليه سوى ربه وضميره ، فصيام الصائم طواعية وبإرادة نابعة من نفسه ، وفى ذلك تنقية للضمير وصفاء للنفس وهما من أهم مقومات الإيمان .

٣- وللصوم مظاهر خارجية تلازمه فى علاقة الصائم بغيره من الناس يجب على الصائم مراعاتها وأخذ نفسه بها فى علاقاته الاجتماعية ، حتى يكون صيامه كاملا ومقبولا من الله عز وجل .

ويصور رسول الله ﷺ ما يجب أن تكون عليه علاقة الصائم بالناس فى قوله :

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابَّهُ أحد فليقل إنى صائم ، إنى صائم)

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غُفر له ما تقدم من ذنبه) .

فعلى الصائم تجنب الغضب والصياح وفحش القول ، وعليه كبح جماح غضبه على من يعتدى عليه بالرجوع إلى نفسه وتذكر صيامه ، فلا يدنسه ولايبطله بمقابلة السوء بالسوء . أما إيمان الصائم واحتسابه فهو أن يصوم الإنسان موقنا بحكمة الله تعالى من فرضه ، وأن يستقبل شهر الصيام مستبشرا متهللا مغتبطا . فيتجنب من الأقوال والأفعال ما يتنافى مع هذا الرضا والاستبشار فيتجنب اللغو فى القول والسب وضيق الصدر ، كما يتجنب الإهمال والكسل متعللا بالصيام وأن ينأى بنفسه عن عمل ما يغضب الله - كالغيبة والعدوان والظلم ، بل عليه تزكية صيامه وتطهير نفسه بالكلمة الطيبة وحُسْنِ العشرة والإنفاق والبذل مما رزقه الله لإغاثة الملهوف والمحتاج والإقبال على العمل المنوط به بتفاؤل ونشاط وإتقان .

٤- وفى الصوم فوائد مباشرة تعود على صاحبه بالنفع والخير ، فيربى نفسه على الدقة فى المواعيد وتنظيم أوقات طعامه وشرابه مع الاعتدال فيما يأكل ويشرب ولايسرف فيهما لتعويض ما لاقاه أثناء صيامه من جوع وحرمان ومن ثم لاتتخم معدته ولاتعتل صحته بفعله هو وليس للصيام دخل فى هذا ولاذاك .

رابعا - الزكـــاة :

الزكاة ، لغةً النماء من زكىَّ أى طهر وأصلح ، والزكاة تطهير وإصلاح ، والشخص الزكىّ هو الشخص الطاهر الصالح .

والزكاة من الناحية الدينية الإسلامية إصلاح لنفس المسلم وتطهير لماله (عينا كان هذا المال أو نقدا) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطريق العملى لأداء هذه الفريضة الإسلامية هو إخراج جزء مما يملك ليعطيه طواعية ، لأخيه المسلم الذى لايملك .

والزكاة كفريضة إسلامية تأتى فى المرتبة الثانية بعد فريضة الصلاة أمر بها الله سبحانه المسلمين ، وقرنها بالصلاة وجعلها مثلها دين القيامة يحاسب بها الناس .

« وما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدوا الله مخلصينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمو الصَّلاةَ ويؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ »(٣٥) .

وقد ورد ذكر الزكاة مقرونة بالصلاة فى كثير من الآيات القرآنية ، منها الآيات : ١٣ ، ١١٠ ، ٢٧٧ من سورة البقرة ، ٥٥ من سورة المائدة ، ٦ ، ١٨ ، ٧٠ من سورة التوبة ، ٤١ من سورة الحج ، ٣ من سورة النمل ، ٤ من سورة لقمان ، ١٩ من سورة الذاريات .

فالزكاة إذَنْ فريضة حتمية على كل مسلم ، شأنها كشأن الصلاة لايعفى من إيتائها عائق جسمانى أو قلة فى المال . فعلى المسلم إخراج الزكاة مما فاض عنده عن قوت يومه وقوت عياله ، عملا بقول الرسول ﷺ :

(الزكاة واجبة على من يملك قوت يومه له ولعياله ، لمن لايملك قوت يومه له ولعياله) .

الزكاة فريضة محددة بالقرآن الكريم والسّنّة الصحيحة وإجماع المسلمين على شروطها ومقاديرها ومصارفها ، وهى مبسوطة فى كتب الفقه واضحة محدودة بأنواعها وفروعها .

والهدف الإلهى من هذه وتلك تأكيد لمعنى التكافل والأخوة والمحبة والتعاطف فى المجتمع الإسلامى ، والطريقة العملية للتعاون بين أفراده .

ولأهمية الزكاة ، سخا العليم الكريم فى ثواب مؤتيها :

«إنَّ الّذين آمنوُا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وأقَاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ لَهُمْ أجْرُهُم عِنْدَ ربِّهم ولا خَوْفٌ عليْهِم ولا هُمْ يَحزْنُونَ»(٣٦) .

ثم توعّد العلى القدير ما نِعى الزكاة مع قدرتهم على إيتائها بأشد أنواع العقاب .

« ولا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَبْخَلونَ بما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هو خَيْراً لهم بل هو شَر لهم ، سَيُطَوَّقونَ ما بَخلُوا بِهِ يومَ القِيامةِ ولله ميراثُ السَّموات والأرْضِ والله بما تَعْمَلُون خَبيرٌ »(٣٧) .

« والذين يكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقونَها فى سَبيل الله فَبَشِّرْهُم بِعذاب أليم * ، يَوْمَ يُحْمَى عليها فى نارِ جَهَنَّمَ فتُكْوَى بها جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وظُهُورُهم هذا ما كَنَزْتُم لأنْفُسِكُمْ فَذُوقوا ما كنتم تَكْنِزُونَ »(٣٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وَمِنْهم مَّنْ عاهدَ الله لَئِنْ آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكونَنَّ من الصالحينَ * فلما آتاهُم مِن فَضْلِه بَخلوا به وتولَّوْا وهُم مُعْرِضونَ » .

« فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فى قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٣٩) .

حكمة الزكاة : فرض الحكيم الخبير على كل مؤمن مسلم أنواع الفرائض والعبادات لتأكيد طاعته لربه وتزكية لنفسه وتقربا لله الغنى الحميد بالشكر والحمد على نعمائه ، وتؤدّى كل عبادة بوسيلة معينة تزكية وتطهيرا لهذه الوسيلة ، فالعبادات البدنية كالصلاة والصوم والحج تزكية للبدن والروح بالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بأفعال وحركات بدنية تعود على البدن بنعمة الصحة والعافية ، كما يتلو المتعبد أقوالا تعود على روحه بنعمة الصفاء أما الزكاة فهى عبادة مالية قوامها الضمير والشكر لله والتقرب منه كسبا لرضاه على نعمة المال فيبارك الله فيه ، فمن الحكم الربانية فى فرض الزكاة :

١- أن المال مطلب كل إنسان ومعشوقه فى كل زمان ومكان ، ولا حدود يقف عندها الإنسان فى طلبه ، سواء كان هذا المال نقديا أو عينيا ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

« وتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَّمّاً * وتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً »(٤٠) .

ويقول رسول الله ﷺ :

(منهومان لايشبعان ، طالب علم وطالب مال) .

لذلك أراد العليم الخبير أن يختبر مدى عمق إيمان عباده به باختبار مدى طاعتهم له وامتثالهم لأوامره وطلبهم للآخرة قبل طلبهم للدنيا ، وليرى هل المال أحب إلى قلوبهم من الله أم هم يؤثرون طاعته ومحبته ورضوانه ، ليجزى كل نفس بما آمنت وما كسبت :

« قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي ، يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكم ذُنُوبَكُمْ واللهُ غفورٌ رَّحِيمٌ »(٤١) .

« ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقَدْ فازَ فَوْزاً عظيماً »(٤٢) .

٢- الزكاة علاج يشفى النفس ويطهرها من مرض البخل والشح والأثَرَةِ ويخلصها من الإسراف فى جمع المال واكتنازه حبا فيه . كما تشفى من مضاعفات هذا المرض وآثاره الوخيمة كأكل مال الغير واغتصابه بغير وجه حق ، وإثارة الحقد والضغائن فى أمة تدعو للخير والسلام والمحبة وتعاطف الغنى مع الفقير المحروم . لذلك كان البخل والشح فى بذل المال فى سبيل الله ولخير الناس من أبغض الكبائر التى حذر منها الله ورسولُه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« والَّذينَ تبوءوا الدَّارَ والإيمانَ من قَبلِهم يحبُّونَ من هَاجَرَ إليْهم ولا يجدُونَ فى صدُورِهِم حاجةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرونَ على أنْفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خصَاصَةٌ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »(٤٣) .

(إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم) صدق رسول الله .

٣ - الزكاة تربية للمسلم على السخاء والكرم وحب الخير واصطناع المعروف ، وكلها صفات المؤمن بالله وباليوم الآخر ، وتدريب للمؤمن على أخذ هذه الحياة الدنيا متاعا لآخرته فينجو بنفسه من غرور الدنيا والافتتان بزخرفها عن ذكر الله ، ويسعى مخلصا لكسب رضا ربه وتطهير نفسه ، وذلك عملا بقول الرسول الصادق .

(إن السخى قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة ، وإن البخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة ، قريب من النار ، وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل) صدق رسول الله .

٤- الزكاة تدريب للإنسان على قهر نفسه وقمع شهواتها ، إذْ يخرج المزكى كل عام مال الزكاة طائعا مختارا وراضيا مرضيا ومنفقا فى سبيل الله من ماله ، على حبه ليغيث محروما أو ملهوفا من إخوانه المؤمنين ويفرج كربهم ويفرح قلوبهم ابتغاء وجه الله وإعلانا لطاعته وطمعا فى بركته .

« ويُطْعِمونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكيناً ويتيماً وأسيراً »(٤٤) .

« إنَّما نُطْعِمُكُمْ لوَجْهِ اللهِ لانُريد منكُم جَزَاءً ولا شُكُوراً »(٤٥) .

٥- فى الزكاة تأليف بين قلوب المسلمين ، ومنع للحقد والحسد فالمزكى بزكاته لايطهر ماله ويزكيه فحسب ، إنما هو أيضا يطهر قلوب المحتاجين من فقراء المسلمين من الحسد وشروره ، ويقارب بين قلوب المؤمنين فيحل التحاب محل البغضاء والشكر محل الحسد ، والتعاون محل التنافر والتناحر ، وفى الزكاة تحقيق للتكافل والتضامن بين أبناء الأمة الإسلامية ، فتصبح مجتمعا سليما متماسكا قويا .

«والمؤمِنونَ والمؤمِناتُ بَعْضُهُمْ أوْلياءُ بَعْضٍ يأمرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ويُقيمونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ ويطيعُونَ اللهَ ورَسولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ »(٤٦) .

٦- الزكاة تزكية المال أى تطهيره فى حالة جمعه وفى حالة إنفاقه ، ففى أمر الله المسلم بزكاة ماله إيحاء له بتحرى السبل الشريفة فى جمعه وتحصيله ، ثم إنفاقه بما يرضى الله والناس عن طريق الزكاة ومن تحرى الحلال فى جمع ماله واتقى الله فى بذله ، زاد الله فى ماله وزكاه ، فيربيه من فضله أضعافا مضاعفة من حيث لايحتسب صاحبه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«يَمْحَقُ اللَّهُ الربا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كفَّارٍ أَثِيمٍ» (٤٧)

الزكاة نوعان : زكاة مال ، وزكاة فطر .

- فزكاة المال على المال نفسه ، إذا بلغ النصاب وحل عليه الحول .

- أما زكاة الفطر فهى تزكية للبدن وتطهير له .

على من فرضت الزكاة ؟ الزكاة فريضة إلهية على كل مسلم حر قادر ، يخرجها عن نفسه وعمن يعول شرعا كأولاده وخدمه وأقاربه ، وعن زوجته أيضا فى بعض المذاهب .

لمن فرضت الزكاة ؟ تعطى الزكاة وقت حلول موعدها لصاحب الحق فيها ، وهو المعدم المحتاج اليها من المسلمين ، كالفقراء والمساكين وابن السبيل والمسلم المحارب فى سبيل الله وللعاملين فى جمعها ، وغيرهم ممن حددهم الحكيم الخبير فى محكم تنزيله :

«وفِي أَمْوالِهِم حَقٌّ للسَّائِلِ والمَحْرُومِ (٤٨)»

«إِنَّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ والمَسَاكِين والعامِلِينَ عليها والمُؤَلَّفةِ قُلُوبُهُم وفى الرِّقابِ والغارِمِينَ وفى سبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضةً مِنَ اللهِ ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ (٤٩) .

والمقصود بالعاملين على الزكاة أولئك الذين كانوا يجمعون الزكاة ويأخذون العشور من المارة فى الطرق العامة لإيداعها بيت المال فى صدر الإسلام .

والصدقة فى الرقاب تعطى عن الرقيق الذى كاتبه سيده على عتقه إذا ما دفع مبلغا معينا من المال .

والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام .

وابن السبيل هو المسافر الذى فقد ماله أثناء سفره ، واحتاج لمعونة يستعين بها على مواصلته .

وفى سبيل الله ، أى للمسلمين المحاربين فى سبيل الله وإعلاء كلمته والدفاع عن دين الله ضد كل معتدٍ ، وكذلك المجاهدون الذين عجزوا عن تجهيز أنفسهم واللحاق بجيوش المسلمين ، لشدّةِ فقرهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- آداب الزكاة : لا يكفى المزكى إيتاءُ الزكاة المفروضة عليه للفقير والمحتاج ، رغم ما فى هذا السلوك من مظاهر التعاطف والتعاون بين المسلمين ، بل لقد بين لنا القرآن أيضا الأسلوب الذى يتم فيه العطاء ليكون أقوم وأكثر قبولا عند الله ، وفى آياته البينات توضيح وتبصير للمزكى بالآداب التى يجب التحلى بها عند العطاء ، ومن هذه الأساليب :

١ - الاستخفاء فى العطاء وعدم الجهر به ، فلا يعطى المزكى ما له للفقير أمام الملأ من الناس حفاظا على كرامة هذا المحتاج وإنسانيته وماء وجهه ، فليس ألم على النفس الكريمة من مد اليد للناس طلبا للإحسان والظهور أمام الناس بمظهر المتطفل على الغير ، ويكفى المحسن عناية الله به وكرمه عليه أن جعله هو المعطى لا الآخذ . ومظهر الشكر لله على نِعمهِ أن يكون المعطى فى عطائه ملتمسا رضا ربه وحده وليس طالبا إعجاب الناس ، ويكفى المعطى راحة ضميره ورضا نفسه أن يحفظ للفقير ماء وجهه ولا يكشف ستره أمام الناس ، وما أحكم الآية :

«إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وإِنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَراءَ فهو خيرٌ لكم وَيُكَفِّر عَنْكُمْ مِّن سَيِّئاتِكُم ، والله بما تَعْمَلونَ خَبِيرٌ»(٥٠) .

وإذا علمنا أنّ من بين الفقراء المحتاجين من يمنعه تعفّفه واعتزازه بإنسانيته سؤال صدقة أو مد يده للغير طلبا لمعونة هو فى مسيس الحاجة اليها ، لزاد تعاطفنا معه واحترامنا له ، فلا أقل من أن نحفظ له هذا الشعور الإنسانى بل ونعمقه ، وعلى المعطى فى هذه الحالة ألا ينتظر منه سؤالا أو مد يده طلبا لصدقة بل عليه أن يسارع بالعطاء قبل السؤال ، وهنا يكون جزاء المعطى مضاعفا عند ربه فيجزيه عن عطائه ويجزيه عن جبْر خاطر المحروم وحفظ كرامته وسترعيبه .

«لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينِ أُحْصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعونَ ضَرْباً فى الأَرْضِ يَحْسَبُهُم الجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ»(٥٢) .

ألا ما أنبله وأعظمه أجرا عند الله ، ذلك المحسن المزكى الذى ينفق من ماله ابتغاء وجه الله وحده ، إذا ما سعى بنفسه بحثا عن هؤلاء المحتاجين المتعففين الذين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمنعهم من السؤال حياؤهم وعزة أنفُسِهِم فيعطيهم حقهم مما رزقه الله من مال ، بعيدا عن أعين الناس وزهدا فى الشهرة وحب الظهور .

وما أحرانا نحن العرب ، وقد أُخرج إخوة لنا من ديارهم ظلما ، ونهبت أموالهم ، وأبدلهم عدو غاصِب ذلاً وعَوَزاً من بعد عز ورفاهية . ما أحرانا بالتأدب بهذا الأدب القرآنى بمد يد العون لهم وتسليمهم حقهم فى أموالنا ، ما أحرانا بالسعى إليهم أينما كانوا لإعطائهم حقاً لهم فرضه الله علينا ، ولا فضل لنا ولا منّ عليهم فى رد حقهم اليهم .

٢ - صدق النية ونبل الهدف فى العطاء ، ابتغاء مرضاة الله وحده وانصياعا منا لأوامره ، لا سعيا وراء كسب مادى أو معنوى نطلبه من المحتاج مقابل هذا العطاء . فلا يجوز شرعا ولا أدبا أن يتصدق مؤمن مقابل شهرة أو حبا فى الظهور أمام الناس بمظهر السخى الكريم ليشار إليه بالبنان ، ولا يجوز الإعلان فى الصحف عن اسم المعطى ومقدار ما تصدق به من مال لإخوة له فى الدين والإنسانية ، ولا يجوز للمعطى أن يطلب من صاحب الحاجة خدمة أو عملا مقابل ما تصدق به عليه من مال ، ومن يفعل ذلك فإنما يتخذ من هذه الفريضة الواجبة على كل مؤمن سلعة وتجارة ينفقها مؤتيها فى سبيل منفعة دنيوية عاجلة ، لا ابتغاء مرضاة ربه وحسن الجزاء فى الآخرة .

ومناط صحة الزكاة وقبولها لدى الله قبولا حسنا هو خلوص نية معطيها فى العطاء من حيث نوع العطاء وطريقته ، فلا ننتقى من أموالنا أخبثه فنعطى منه ، فهذا ما حرمه الله :

«يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ماكَسَبْتُم ومِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الخَبيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيه إلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَمُوا أَنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٥٣)» .

ويحدد العليم اللطيف السلوك القويم فى إيتاء الزكاة وفى الإنفاق بأن يكون القصد هو خدمة الدين وتعاليمه ومرضاة الله طمعا فى ثوابه ، فلا تباهى ولا منًّا ولا استعلاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أموالهم فى سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سنَابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، والله يُضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيم[٥٣]» .

«ومثلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاةِ الله وتثبيتا من أنفسِهم كمثلِ جنة بربوةٍ أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابـل فطل والله بمـا تعملون بصير[٥٤]» .

«الَّذين يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ الله ثُمَّ لايُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقـوا مَناًّ وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون[٥٥]» .

فمن ابتغى من وراء زكاته غير رضا الله ووجهه ، لا يقبل الله زكاته ولا خير يرتجى من ورائها :

«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأَذى كالَّذى يُنْفِقُ مـالَهُ رِئـاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهدِى الْقَوْمَ الكافِرِينَ»[٥٦] .

وخير من اتخاذ الزكاة وسيلة للمن على الفقير المحتاج وإيذائه ، وإذلاله ، كلمة طيبة وقول حسن يجبر بهما خاطره ويزيل كربه :

«قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ»[٥٧] .

أنواع الزكاة : الزكاة نوعان - زكاة المال ، وزكاة الفطر .

(ا) زكاة المال : والمقصود هنا بالمال ما يملك الشخص وله حرية التصرف فيه ، سواء أكان هذا المال نقدا أم عينا ، ومن ثم تتناول زكاة المال ، إخراج نسبة مما يمتلك الشخص من ذهب وفضة أو زرع وثمار أو حيوانات سائمة ، أو بضاعة يتاجر فيها أو ركاز مما فى الأرض من معادن :

١ - زكاة النقدين أى الذهب والفضة سواء خامة أو مصنعة ، إذْ لا زكاة فيما عداهما من الجواهر كالماس واللؤلؤ وغيرها من الأحجار الكريمة ، ولعل عدم فرض الزكاة على الأحجار الكريمة أن الإنقاص منها بالاستقطاع يقلل من قيمتها بنسبة أكبر من نسبة الزكاة التى فرضت على النقدين ، هذا فضلا عن أن الأحجار الكريمة لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكتنز لذاتها وبحالتها الطبيعية ولا تستثمر بل تتخذ كمادة تصنع منها الحلى للزينة التى احلها الله للمؤمن والمؤمنة .

والقرآن الكريم صريح فى بيان النقدين ووجوب الزكاة فيهما ، فبيّنها فى الآية ٣٥ من سورة التوبة .

وقد بيّن الرسول نصاب الزكاة فى الذهب والفضة فى قوله ﷺ :

(ليس فى أقل من عشرين دينارا شىء ، وفى عشرين نصف دينار) أى ربع العشر مما يملك الشخص من ذهب أو فضة أو ما يقوم مقامهما مقدّرًا بالنقد المتداول فى بلد المزكى .

وزكاة الذهب والفضة فريضة أيضا على ودائع المسلم لدى شخص أو هيئة (البنوك مثلا) ما دام قد مضى عليها الحول ، وكذلك على ما يمتلك المسلم من قيمة الأسهم والسندات يستثمرها المسلم فى مشروعات انتاجية كالمؤسسات الصناعية او الزراعية او التجارية .

٢ - زكاة الدَّيْن : والدَّيْن هُو ما لشخص لدى شخص آخر بصفة دين يعود إلى صاحبه فى موعد يتفق عليه الدائن والمدين ، هذا النوع من المال لا تفرض عليه الزكاة من الدائن ، لأنه ليس فى حوزته ، وبالتالى لا يستطيع أن يخرج منه زكاة . بل إن الزكاة فى هذه الحالة فرض على المدين الذى تسلم هذا المال ولو كان مفلسا وعليه أن يخرج عنه الزكاة اذا مضى عليه الحول عند استلامه له ، بشرط أن يبلغ هذا الدين المقبوض نصابا أو بضمه إلى ما عند المدين من مال أصلى . ولا زكاة فى الديون إذا لم تكن ثابتة فى ذمة المدين .

٣ - زكاة النبات : وتسمى زكاة الزرع والثمار :

قال تعالى : «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وغير مُتَشابِهٍ كُلُوا منْ ثَمَرِه إذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفين»[٥٨] .

أى أن الزكاة فى الزرع والثمار فريضة على كل مسلم لديه أرض زرعها وأثمرت ثمرا ، فللمسلم أن يأكل من ثمار أرضه دون إسراف ، حتى لا يحرم الفقير حقه فى ثمار الأرض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقدر الرسول ﷺ نصاب الزكاة فى الثمار ، بقوله :

(ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر ولا حب ، صدقة)

والوَسَقُ مقداره ستون صاعا ، والصاعُ مقداره قدح وثلث بالكيل المصرى .

أى أن النصاب خمسون كيلة إذا حصل عليها صاحب الأرض من ثمار أرضه وجبت فيها الزكاة . وفرّق رسول الله ﷺ فى مقدار زكاة الزروع بين ثمار الأرض التى تروى بالراحة وتلك التى تروى بالآلات .

(فيما سقتْ الماء والعيون أو كان عثريا العُشْرُ ، وفيما سقى بالنضح نصف العشر) .

والعثرى هو النبات الذى تصل جذوره إلى مستوى المياه التى فى باطن الأرض فتمتصه ومعنى ذلك ان مقدار الزكاة فى النصاب ، ٥ كيلات فى الحالة الأولى ، ٢,٥ كيلة فى الحالة الثانية .

وضرائب الأطيان التى يدفعها زارع الأرض للحكومة لا تعفيه من إخراج زكاة الزروع لأن ضريبة الحكومة تفرض على الأرض أما الزكاة ففرض على الزرع والثمر .

٤ - زكاة الحيوان : وتعرف بزكاة النِّعَم أو السوائم أى الحيوانات ، ويطلق العرب كلمة الأنعام على الإبل والبقر والغنم .

قال تعالى : «وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ»(٥٩) ، «والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(٦٠) .

ففرق إذَنْ بَيْنَ الأنعام وبين الخيل والبغال والحمير .

والزكاة واجبة على الأنعام فحسب ، وهى المقصودة بزكاة الحيوان ، ويشترط فى زكاة الحيوان :

١ - أن تكون سائمة ، وتعتمد فى غذائها كله أو معظمه على المراعى الطبيعية المباحة ولا تخص أحدا ولا يدفع مقابلها ثمن ، بخلاف ما يعيش على العلف الذى يشترى فهو لا زكاة فيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - أن تكون مُعَلّفةً للنسل والإنتاج فحسْب ، فإذا خصصت للركوب أو الحمل أو الأعمال الزراعية أو الصناعية (كالمعاصر والطواحين) فلا زكاة فيها .

٣ - أن تبلغ نصاب الزكاة ، وهو في الإبل خمسة رءوس ، وفي البقرِ ثلاثون وفي الغنم أربعون .

٤ - أن يمر عام كامل على ملكية النصاب .

وفي الحاصلات (أي المنتجات) الحيوانية كاللبن والصوف والجلود ، إن كانت للاستهلاك الشخصي فلا زكاة فيها ، أما إذا كانت للتجارة أو الصناعة جرت فيها الزكاة مجرى زكاة التجارة والصناعة .

٥ - زكاة التجارة ، وهي ما تُخرَجُ عن البضاعة موضوع التجارة .

وكان النبي ﷺ يأمر بأن تُخرَج صدقةٌ عن كل ما هو معد للبيع وفي ذلك قال :

(في الإبل صدقة وفي الغنم صدقة ، وفي البَزِّ صدقة) والبز هو الثياب فالزكاة إذن واجبة في كل ما يعرض للبيع ، ولوكان من الأنواع التي لا تجب فيها الزكاة بذاتها كالخيول التي يستخدمها صاحبها لركوبه والألبان والبز التي هي أصلا للاستهلاك والاستعمال الشخصي ، بشرط مرور الحول ووجود النصاب قبل بيعها .

ونظامها : حصر أموال التجارة في آخر الحول ، وتقويمها بحيث يكون التقويم بالسعر الحاضر لا بسعر الشراء ، فإذا بلغت النصاب وقدره ٥٢٩ قرشا وثلثا القرش ، ومر عليها الحول ، أخرجت فيها الزكاة .

ومقدار زكاة هذه الأثمان هو ربع العشر أي جزء من أربعين ، وتخرج زكاتها نقداً لا من نفس ما يتجر فيه ، مع ملاحظة ما قد يكون للتاجر من ديون لدى الغير ، وله أن يؤخر إخراج الزكاة الخاصة بالديون حتى يقبضها بشرط مرور الحول على هذا الدَّين قبل استرداده .

وإذا امتلك شخص شيئا بغير نية التجارة ، كأن يكون قد اشتراه للاقتناء أو ورثه أو وهب له ، ثم رأى الاتجار فيه فيبتدىء حوله من وقت نية التجارة لا من وقت حيازته . ويلاحظ أن الربح المستفاد في أثناء السنة يجب اضافته لأصل رأس المال . ويزكى عن الجميع في آخر الحول ، لأنه صار تابعا للأصول في الحول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ - زكاة المعدن أو الرّكاز : المعدن هو ما أودعه الله فى باطن الأرض من ذهب أو فضة أو ماس أو نحاس أو كبريت أو بترول وغيرها مما يستخرج من باطن الأرض وكما هو موجود خاما فى مناجمه .

أما الركاز فهو ما يوجد مركوزاً فى الأرض مما دفنه أهل الجاهلية لإخفائه عن أعين الناس .

ومقدار زكاة المعدن ربع العُشْر لأن استخراجه من مناجمه يحتاج إلى جهد ونفقات . أما الركاز فيجب فى زكاته الخُمْس لأنه عثر عليه بدون مجهود أو مشقة . ولا يشترط فى المعدن أو الركاز مرور الحول بل تجب فيهما الزكاة بمجرد العثور عليهما لأنهما أصبحا فى حوزة واجدهما .

والرّكاز يكون لمالك الأرض إذا كانت مملوكة ، فإن كان فى أرض عامة أو غير مملوكة لشخص معين ، كالصحراء مثلا أو قاع البحار كانت من حق واجدها .

وإذا عثر على كنز من دفائن المسلمين تحت الأرض ، فهو لصاحبه إن عُرف وإلا اعتبر (لقطة) كالذى يوجد على وجه الأرض ، ووجب على واجده أن يعلن عنه إعلانا عاما للتعرف عليه ، ثم يكون لواجده إذا لم يظهر صاحبه الأصلى ، وحكم الزكاة فيها كالركاز هى الخمس إذا بلغت النصاب .

(ب) زكاة الفطر : وتسمى زكاة الأبدان ، لأنها تطهر البدن وتصلحه ، أو صدقة الرءوس لأنها تُخرج عن الشخص ومن يعولهم شرعا ، أو زكاة الصوم لأنها شكر لله على ما وهبه للصائم من القدرة على أداء فريضة الصوم وتطهير لهذا الصوم فيتقبله الله قبولا حسنا . أو زكاة رمضان لأنها تزكية لشهر القرآن أو زكاة الفطر لوجوبها بالفطر بعد إتمام صيام شهر رمضان .

وقد فرضت زكاة الفطر طهرة للصائم مما قد يكون قد جرى منه من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين .

موعدها : من أداها قبل صلاة عيد الفطر فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد هذه الصلاة فهى صدقة من الصدقات . ويمكن التعجيل بإخراجها قبل وقت صلاة عيد الفطر بيوم أو يومين ليقضى بها الفقير لوازم العيد له ولعياله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على من تفرض زكاة الفطر ؟ فرضت على القادر على قوت يومه له ولعياله ومن يعول شرعا وما فاض بعد ذلك يزكّى عنه .

لمن تجب زكاة الفطر ؟

تجب لمن لا يملك قوت يومه له ولعياله .

مقدارها : ربع كيلة قمح (أو قيمتها نقدا) بسعرها الحاضر ، عن كل شخص تخرج عنه الزكاة .

شروط صحتها : صدق النية وخلوصها لوجه الله ولا تعطى مقابل منفعة مادية أو معنوية .

خامسا : الحج :

الحج فى الإسلام فريضة على كل مسلم قادر يقوم بمقتضاها بـزيارة بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث توجد الكعبة المشرفة ، وإقامة مناسكه عندها وفيها حولها من مقدسّات إسلامية .

والبيت الحرام هو ذلك البيت الذى أمر الله خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببنائه ليعبد فيه الله وحده ويذكر فيه اسمه وحده . وهو بذلك أول مسجد بنى على سطح الأرض لعبادة الخالق سبحانه وتعالى . وقد أحاط الله بيته الحرام بكل ما يليق به من بركة وطهارة وحرمة وتقديس فجعله ، سبحانه وتعالى ، مكانا مباركا .

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعَالَمِينَ[٦١]»

وجعله دار أمن وسلام ، ومن دخله كان آمنا على نفسه وما له ولا يجوز عنده قتال إلا دفاعا عن النفس :

«وإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ»[٦٢] .

كما بين رب البيت الحرام مناسك الحج إلى هذا المكان الطاهر ، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، وفيه يقبل الله توبة التائب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد حفظ الله لبيته قدسيته وطهارته من دنس الشرك به فى هذا البيت المقدس :

«وإِذْ بَوَّأْنا لإِبْرَاهِيمَ مكَانِ البَيْتِ ، أن لاَّ تُشْرِكْ بى شَيْئًا وَطهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ»(٦٤) .

لكل هذا جعل الله سبحانه وتعالى الحج إلى بيته الحرام فريضة على كل مسلم قادر ماليا وبدنيا .

«فَيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْراهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ»(٦٥) .

وقد فرضت هذه العبادة فى السنة التاسعة من الهجرة .

والحج فريضة على كل مسلم قادر يؤديها مرة على الأقل طول حياته ، ولذا فهو فرض على التراخى ، أى تؤدى فى أية سنة من سنى حياة المسلم بعد بلوغه سن الرشد ويحسن أن يؤديها متى بلغ سن البلوغ حتى لا يتعذر عليه عندما تتقدم به السن ويعجز عن تحمل مشاقه ونفقاته . وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف :

(حجوا قبل ألاَّتحجوا ، فقد يمرض المريض وتعرض الحاجة) .

حكمة الحج : فرض الله الحج ، كما فرض بقية الفرائض الإسلامية على كل مسلم لأهداف فيها الخير كل الخير لمن آمن بالله وباليوم الآخر من حيث تصفية روحه وتعلية سلوكه بما يناسب الفريضة حتى ينعكس هذا السلوك فيما بعد على تصرفات من يقيم شعائر الدين ويؤدى عباداته نحو خالقه ، وهو سبحانه وتعالى غنى عن العالمين ، ومن آثار تأدية فريضة الحج اكتساب مؤديها لقيم جديدة تنفعه فى حياته الدنيا ولها ثوابها فى الحياة الآخرة ، ومن هذه القيم :

١ - القيم الروحية : تتجلى فى تلبية المؤمن نداء ربه وتنفيذ أوامره طواعية ، وبنفس راضية مما يعمق إيمانه ويدعم تقواه ، ورؤية الحاج لتلك البقاع المقدسة التى باركها الله وما حولها والتى تتجه إليها قلوب ملايين المسلمين ووجوههم أثناء الصلاة وذكر الله والدعاء إليه ، تهز الحاج هزاً عنيفا وتكسبه شعورا جديدا بالصفاء الروحى والهدوء النفسى ، ومشاهدة الحاج لأول بيت أقيم لعبادة الله الواحد الأحد ولما حوله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أماكن مقدسة حيث نزل الوحى وحيث جاهد الرسول ورعيله الأول الذى آمن بالله ورسوله وأوذى وصمد فى سبيل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، كل هذا زاد ما بعده زاد يتزود به الحاج بنور الهداية الربانية وينسى معها ما قد يكون قد صادفه من مشاق فى سبيل تحقيق هذه الفريضة ، ومن ثم يكون الحج عبادة يطهر بها الحاج نفسه ويصفى روحه حين يترك داره وأهله ومتاعه فى سبيل التزود من منابع هذا النور الإلهى الذى يستضىء به فى حياته الدنيا ويبصر به أقوم المسالك التى يصل من خلالها إلى رضا الله وغفرانه وثوابه فى حياته الآخرة ، والحاج إذْ يتجرد من كل مشاغل الدنيا ومتاعها ويتجه إلى ربه ملتمساً مرضاته إنما يتطهر من ذنوبه ويغفر له ربه .

وفى الحديث الشريف عن ثواب الحج :

«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجع مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّه» .

«حجو فإن الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء البدن» .

والحاج إذْ طهرت نفسه وصفيت روحه وأحبه ربه ، يتقبل الله منه التوبة كما يتقبل شفاعته فى أهله ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ .

«يشفع الحاج فى أربعمائة من أهل بيته ، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» .

(٢) القيم الأخلاقية :

يكتسب الحاج عدة صفات أخلاقية حميدة وأنواعا من السلوك القويم من خلال أداء هذه الفريضة ، منذ أن ينوى ويسافر إلى هذه الأماكن المقدسة حتى عودته إلى أهله ، واستقراره فى بيته حيث يحس بأنه قد خُلِق شخصاً جديداً روحياً وأخلاقياً كله صلاح وتقوى ، فالنية الخالصة على أداء فريضة الحج دليل صدقه مع نفسه وقوة إيمانه بربه وبما أمر به ، ومن ثم يصبح الوفاء بالعهد خُلُقاً حميداً اكتسبه الحاج بادىء ذى بدء . والحاجُّ إذْ يعد عدته لأداءِ فريضة الله عليه ، وهو إذْ يدبر ما يلزم لهذا العمل من نفقات ولوازم ذاكراً ربه ، يتحرى طهر ماله من أى دنس ويتحرى الخير والتقوى فى عمله حتى يقبل الله منه حجه . وفى مشاق السفر إلى الأراضى المقدسة ذهاباً وإياباً وأداء مناسك الحج يكتسب الحاج صلابة فى الحق وصبراً على المشاق مع سمو القصد . والحج كفريضة يؤديها الحاج نحو ربه وخالقه ، يسنوجب أداءه فى جو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من طهر النفس وصلاح فى القول والعمل ، فلا لغو ولا قول فاحش ولا حقد ولا غضب ، بل لا يصدر من الحاج الا الاستغفار وذكر الله وتقواه يتقرب بهما إلى ربه ومن ثم يتحلى بالتقوى التى تنير له الطريق القويم فى الفكر والقول والعمل ، وذلك عملا بقوله سبحانه وتعالى :

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فيهن الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولاَ جِدَالَ فِى الحَجِّ ومَا تَفْعلوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فإن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبَاب»(٦٦) .

(٣) القيم الاجتماعية :

إن فى اجتماع ألوف الحجيج فى مكان واحد وهو الأرض المقدسة وفى وقت واحد هو شهر ذى الحجة يحدوهم هدف واحد وإحساس واحد هو التماس الغفران من الله سبحانه وتعالى والتوبة إليه والتطهر من الذنوب ، والتعاون وعطف الغنى على الفقير ومساعدة القوى للضعيف . وفى تجرُّد الحاج من زخرف الملبس والزينة واكتفائه بالبسيط من الملبس ، إشعار له بالمساواة بين أبناء الدين الواحدوتطهيرا له من نقائص التعالى والزهو على حساب كرامة أخيه فى العقيدة ، وبذلك يكتسب الحاج سلوكاً اجتماعياً قويماً أساسه التواضع وتحرى العدل والصدق مع الغير .

(٤) القيم السياسية :

إن فى اجتماع الحجيج المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ولغاتهم ، جمعا لأمة الإسلام فى صعيد واحد وعلى نية واحدة ، هى تلبية أمر ربهم وتأكيد لعقيدتهم ، فمثل هذا الجمع الصالح فى ذلك المكان الطاهر ما هو إلا مؤتمر دولى إسلامى يتعارف فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ويتدارسون أحوالهم ويتعرفون على مشاكلهم ويتعاونون على حلها بالحق والعدل ، وفى ذلك تقريب بين الشعوب الإسلامية والتحام يجعل منهم صفاً واحداً وبنيانا قوياً راسخاً أمام أى عدو لدينهم أو عدوان حاقد عليهم ، وفى هذا التقارب والتعاون إزالة للخلافات التى كثيراً ما تنشب بين أخوة فى أسرة واحدة هى أخوة العقيدة وأسرة الإسلام ، حتى تكون هذه الأمة بحق خير أمة أُخرجت للناس ، أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أمة تنادى بالسلام وتقاوم العدوان على الحق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شروط الحج :

الحج فريضة فرضها الله على كل مسلم قادر ، وهى مثل بقية الفرائض ، لم يفرضها الله ثم ترك المسلمين كل منهم يؤديها ويزاولها وفق هواه وتفسيره ، بل شرع لها من النظم والضوابط ما يجعلها مقبولة عند الله ولكى تتحقق الحكمة من فرضها ؛ وشروط صحة الحج هى :

(١) الإسلام : إن الحج فريضة إسلامية فرضها الله مع بقية الفرائض التى يجب أن يأخذ بها كل مسلم ليصح إسلامه ، ولذا فهى لا تقبل من كافر ، أو من أحد من أهل الكتاب من غير المسلمين ، إذْ لا يعقل أن يقوم فرد بفريضة واحدة من فرائض الإسلام لكى يصبح مسلماً ، فالفرائض الإسلامية كلٌ لا يتجزأ ، وهى متكاملة إذْ لكل فريضة حكمة تكملها وتعززها حِكَمُ بقية الفرائض ، وهى مع فرضها وإلزام كل مسلم بإتيانها ، ليس فيها ما يُعجز عن الامتثال لها والأخذ بها ، وقد سبق أن بينا كافة التيسيرات التى منَّ الله بها على المسلمين فى أداء فرائض الإسلام ، فلا عذر بعد ذلك ولا حرية لأن يختار الفرد فرضاً من هذه الفرائض دون غيره ، ويأخذ به نفسه ، وإلا كان إسلامه ناقصاً أو بالأحرى لا يمكن أن يكون مسلماً .

(٢) سلامة العقل : فلا يصح لمجنون أداء هذه الفريضة رغم أنه يدين أصلا بالإسلام ، إذْ لا يصح لمجنون إنفاق ، ولا يطالب من لا يملك زمام نفسه أو عقله أن يقوم بتكاليف الحج من نية صادقة صادرة عن وعى ووزن للأمور ، ولا يؤمَنُ سفره أو إقامته أو مناسكه ، وحكمه حكم غير القادر .

(٣) البلوغ ، لأن الحج فريضة على كل مسلم راشد ، فالحج ليس فرضاً على صبى لم يبلغ سن الحلم ولو كان قادراً عليه صحياً ومالياً .

(٤) الاستطاعة : أى قدرة من نوى الحج على حيازة ما يلزمه من زاد وراحلة ، أى القدرة على التزود بما يكفل تكاليف معاشه وإقامته وسفره وعودته ، ويشترط للقدرة على الزاد ، أن يكون لدى الحاج ما يكفيه أثناء حجه وما يكفى من يعولهم حتى يرجع ، ومن الاستطاعة أيضاً ألا يكون به مرض يعجزه عن الحج أو ذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيخوخة موهنة أو ذا عاهة مانعة من السير والرؤية ، كما يمنع المرأة من الحج عدم انتهاء عدتها أو عدم وجود زوج أو محرم معها أثناء الحج ، كما يحول دون الحج عدم توفر الأمن فى الطريق إلى مكة .

(٥) أعمال الحج الضرورية هى :

١ - الوقوف بعرفة (ووقته من ظهر اليوم التاسع من ذى الحجة إلى فجر يوم العيد) .

٢ - الطواف بالبيت الحرام : ووقته بعد عرفة .

٣ - ثم السعى ، ووقته بعد الطواف .

(٦) توافر الحرية لمن ينوى الحج ، فلا يفرض على من كان أمره بيد سواه ممن لا يستطيع السفر بغير اذن منه .

(٧) صدق النية أى أن تكون النية على الحج خالصة لوجه الله وحقيقية للسفر إلى الأراضى المقدسة وتحمل مشاقه من أجل أداء هذه الفريضة دون سواها . فلا يجب أن يشوب هذه النية مقاصد أخرى كالتجارة ، أو كسب شهرة بالظهور أمام الناس بمظهر التقوى والورع .

أركان الحج :

وتشمل الإحرام والوقوف بعرفة وطواف الركن ، والسعى بين الصفا والمروة :

١ - الإحرام أى صدق النية ، ثم النظافة عن طريق قص الأظافر وحلق العانة ونتف شعر الإبط ، ثم الوضوء أو الغُسل ، حتى ولو كانت المرأة حائضا أو نفساء لأن الغسل للنظافة وليس للطهارة ، والغسل أفضل من الوضوء والغسل لازم أيضاً عند دخول مكة وعند الوقوف بعرفة ، ويستحب لرمى جمرة العقبة عند النحر .

ومن السُّنة أن يلبس المحرم إزاراً من الوسط ، ويلبس رداء على الكتف ، ويحسن أن يكون الإزار والرداء نظيفين أو جديدين وأن يكونا أبيضين لا مصبوغين ويحسن التطيب .

ومكان الإحرام للحاج بالنسبة لأهل مصر والشام التى لا يجوز لهم مجاوزته بلا إحرام هو الجحْفَةُ وهى مكان على ساحل البحر الأحمر الشرقى ، ولا وجود لها الآن ، لذلك صار حجاج مصر والشام يحرمون فى رابغ وهى مدينة صغيرة تقع شمال الجحفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن السنّة اتصال التلبية بالإحرام ونصها وارد عن النبى ﷺ ، هو :

(لبّيك اللهم لبّيك ، لبيك لا شريك لك لبّيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبّيك) .

ويقوم مقام التلبية ما فى معناها من التسبيح والتحميد والتهليل .

ويجوز للمحْرم شم الرياحين ، وشد الهميان (الكمّر أو الحزام) الذى به نقوده على وسطه ، وأن ينظر فى المرآة عند الضرورة ، ويحرّم عليه قتل الحيوان إلا الخطر الضار منها مثل الغراب والحدأة والفأر والحيوان السام أو المفترس ولا يجوز للمحرم الجماع ودواعيه ، أو لبس المخيط وإزالة الشعر وتقليم الأظافر والطيب وتغطية الوجه أو الرأس ، وصيد البر ، وقطع الشجر والنبات فى الحَرَم ، ولبس المصبوغ والتخضب ، وقد بين الله تعالى ناقضات الإحرام ، بقوله :

« ولا تَحْلِقوا رءوسَكم حتى يَبْلُغَ الهَدْىُ مَحِلَّهُ » (٦٧) .

« يا أيُّها الَّذِينَ آمنوا لا تَقْتلوا الصَّيْدَ وأنتم حُرُمٌ (٦٨) .

٢ - الوقوف بعرفة (عرفة هضبة فسيحة فى شرقى مكة بعد المزدلفة ومنى) . والوقوف بها يتحقق فى أى جزء من أجزائها مُحْرِماً ، واقفاً أو راكباً أو مضطجعاً .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، حين سئل وهو واقف بعرفة ، أنه قال :

(الحج عرفة ، فمن جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جَمْع ، فقد تم حجه) ، وجَمْع هى المزدلفة .

ومن آداب الوقوف بعرفة : الغُسْل ، وأن يقف الحاج راكباً عند الصخرة مستقبلا القبلة ، رافعاً يديه بالدعاء ، حامداً مهللاً ، مكَبِّراً ملبياً ، مصلِّياً على النبى ، داعياً لأهله ، ويحسن أن يدعو كما دعا النبى ﷺ .

(لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى صدرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل ومن شرما يلج فى النهار) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستحب أن يخفض الحاج صوته عند الدعاء ، وأن يكون كل دعاء ثلاثاً ، ويكثر من التلبية رافعاً صوته ، ويدعو لوالديه ولمشايخه ، وأقاربه وأصدقائه ولكل من أحسن إليه ، وسائر المسلمين .

٣ - طواف الركن : قال تعالى :

« ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ولْيُوفُوا نُذُورَهُم ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ»(٦٩) .

فالطواف حول الكعبة ركن من أركان الحج ومن واجباته ، ويكون الطواف بالمشى أو بالركوب لعذر ، والصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام تنفيذاً لأمر الله :

« وإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابةً للنَّاس وأَمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَّقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وإِسماعيلَ أَنْ طَهِّرا بَيتِى لِلطَّائِفينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ(٧١)» .

وتصح الصلاة حيث يتيسر للحاج فى المسجد الحرام بعد كل طواف ويستحب منه الدعاء عقب صلاة الطواف خلف المقام لنفسه ولأهله .

ويُسنّ فى بدء طواف الحاج استقبال الحجر الأسود ، مهللا مكبراً رافعاً يديه كما فى الصلاة ، وينبغى ألا يزاحم غيره عند استلام الحجر الأسود ، وخير من التزاحم الاستقبال والتكبير ، كما يحسن استلام أو استقبال الحجر الأسود من ركنه اليمانى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامـش البـاب الثانى

(١) الحجر ٣٣ .
(٢) الحجر ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) الحجر ٣٩ .
(٤) البقرة ١١٣ .
(٥) البقرة ١١١ .
(٦) البقرة ١١٢ .
(٧) البقرة ١٢٠ .
(٨) الصف ٦ .
(٩) إبراهيم ٤ .
(١٠) النحل ٣٦ .
(١١) الشورى ١٣ .
(١٢) البقرة ١٢٧ .
(١٣) البقرة ١٢٨ .
(١٤) البقرة ١٣٠-١٣٢ .
(١٥) المائدة ٤٤ .
(١٦) المائدة ٤٦ .
(١٧) آل عمران ٣ - ٤ .
(١٨) البقرة ١٨٥ .
(١٩) النساء ٤٦ .
(٢٠) آل عمران ٧٨ .
(٢١) النساء ١٥٥ .
(٢٢) النساء ١٥٦ .
(٢٣) النساء ١٥٧ .
(٢٤) آل عمران ٧ .
(٢٥) المائدة ٧٥ .
(٢٦) النساء ١٧١ .
(٢٧) النساء ١٧٢ .
(٢٨) المائدة ٤٧ .
(٢٩) البقرة ١٧٤ .
(٣٠) المائدة ٦٦ .
(٣١) المائدة ٦٨ .
(٣٢) المائدة ٦٩ .
(٣٣) الجمعة ٥ .

(٣٤) [illegible] ٤
(٣٥) [illegible] ١٥٤
(٣٦) النحل ٦٤
(٣٧) الحجر ٩
(٣٨) الزخرف ٢١ ، ٢٢ .
(٣٩) الفرقان ١ .
(٤٠) الطور ٣٤ .
(٤١) الشعراء ٨٨ .
(٤٢) الأنعام ١٥٣ .
(٤٣) آل عمران ١٩ .
(٤٤) آل عمران ٢٠ .
(٤٥) آل عمران ٨٥ .
(٤٦) آل عمران ٨٦ .
(٤٧) آل عمران ١٩٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

مقومـــات الإيمـــان

للإيمان أسس وأصول يجب توافرها حتى يكون إيمانا كما أراده الله فيكون إيمانا مقبولا فلا تكفى الشهادتان ولا يكفى أداء شعائر الإسلام وفرائضه ، مالم يقم هذا الإيمان على دعامتين قويتين راسختين من التقوى والبر :

(أولا) التقـــوى :

والتقوى من الوقاية ، وفعلها وقى بمعنى حمى الشيء ودفع عنه ما يلحق به من ضرر ، ويكون ذلك إما بدفع هذا الضرر عند اقترابه أو باتخاذ الوسـائل الكفيلة بإبعاده وإبعاد آثاره عنه ، فيكون الإنسان بتقواه أى بحماية نفسه فى مأمن من حدوث الضرر ، والمتقى هو المحصن الآمن من وقوع الضرر عليـه ، بما أعـد لنفسه من حصانة ووسائل للدفاع والحماية من أى أذى يلحق به ، ومصدرها التقوى أى الأمن من الضرر .

والمؤمن التقى هو من أعد نفسه وقوّاها وحصنها من أى ضرر أو أذى فيصبح آمنا وفى مأمن منه ، والتقوى انما تكون وقاية النفس من ضرر قد يقع عليها ممن للمتقى بهم صلة :

وأوْلى ما فى الوجود بخشية المؤمن واتقـاء غضبه وعـذابه هـو القوى القـادر المطلع ، هو الله سبحانه وتعالى ، وذلك باتخاذ الوسائل لنيل رضاه واتقاء غضبه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد لخص الحكيم الخبير وسيلة تقواه ونيل رضوانه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أى يأخذ التقى نفسه بعمل المعروف وينصح غيره بعمله ، وأن ينتهى عن المنكر وينهى غيره عن إتيانه .

وبعد تقوى المؤمن ربه يجب عليه تقوى نفسه أى اتقاء جموح هواها ويكون ذلك بكبح جماح أهوائها والاستعاذة بالله مما تأمر به من سوء .

وعلى المؤمن أن يتقى الناس ، أى وقاية نفسه ممن يحاولون إلحاق ضرر به ، فالمؤمن التقى هو من اتقى ربه واتقى نفسه واتقى عدْوان الناس عليه .

وسلاح تقوى المؤمن فى جميع هذه الحالات هو الصلاح والإصلاح .
صلاح النفس بتطهيرها من وسوسة الشيطان الرجيم ، وتزكيتها بذكر الله .
وإصلاح الناس بالعمل الصالح والموعظة الحسنة .
والله سبحانه وتعالى ، إذْ خلق الإنسان ضعيفا بنزعات نفسه ، قد زوده بأداتى الصلاح والإصلاح وهما ركنا التقوى ، وهاتان الأداتان هما العقل والإيمان .

العقل الذى به يعقل الأشياء ويتدبر أمرها ، والإيمان الذى يذكره بربه فيهديه إلى تقواه فيما يفكر وفيما يعمل ، هيأ العزيز الحكيم للإنسان ميدان التعقل والتدبير وهى تلك الأرض التى يعيش عليها إذ هيأ له فيها سبل العمل بالحق ومكنه من وسائل الكمال ، والعمل بالسعى فى طلب الرزق الحلال والإيمان بقدرة الله وحكمته .

وهو سبحانه وتعالى ، إذْ وهب الإنسان العقل ليميزه عن سائر حيوان الأرض وليتدبر به أمره ومعاشه ، لم يتركه وشأنه ، بل والاه بالنظر والرعاية ووجهه أسلم توجيه برسالاته السماوية التى بعث بها أنبياءه الأمناء وأنزل بها كتبه البينات ، كل ذلك ليبلغ الإنسان ، خليفته فى الأرض ، بعقله وإيمانه ذلك الكمال الذى أراده له خالقه ، ذلك الكمال البشرى الذى يلائم حياة بشرية صالحة وليس ذلك الكمال المطلق الذى هو من صفات الله وحده ، جل وعلا .

وهو سبحانه وتعالى الذى أنزل الفرقان بالحق ، هداية للبشر ودستور عملهم فى الطريق المستقيم الذى حدده العليم الخبير ، ومن سار على صراط ربه المستقيم فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إخلاص وصدق وإيمان ، اتسم بالعلم الصحيح والعمل النافع والسلوك القويم والقوّة والمنعة بإذن الله .

وهو سبحانه وتعالى أنزل قرآنه الكريم ليعمل البشر بمقتضى آياته البينات أمرا ونهيا ، لما فيه من محكم الهدى الإلهى وتحقيق الكمال البشرى .

وتعنى التقوى التى أرادها الله للمؤمن تقواه سبحانه وتعالى ، وتقوى نفسه ، وتقوى الناس :

(١) تقوى اللـــه :

أول ما يأخذ به المؤمن نفسه فى تقواه تقوى خالقه العزيز رب العالمين ، وطريقها اتباع تعاليمه الإلهية التى أنزلها فى قرآنه الكريم .

وتقوى الله تتمثل فى العبادات المفروضة على المؤمن نحو ربه تزكية لنفسه وهديها وتهذيبها ، كما تتمثل تقوى المؤمن ربه فى البعد عن المعاصى التى نهى عنها محكم تنزيله ، لأنها تدنس روحه وتنعكس على أفعاله وسلوكه ، فعلى المؤمن وقد اتقى ربه والتمس رضوانه أن يتبين المسببات والأسباب التى ترتبط بها ، ثم عليه بعد ذلك اصطناع الأسباب الطيبة لتحصل المسببات الطيبة ، فيكون فعل الإنسان هذا النوع من الأسباب تقوى إذْ أنه يأخذ من الأسباب ما يرضى بها ربه ويتقى غضبه ونقمته وليس خيرا من سنن الله ، التى تضمنها قرآنه الكريم ، ما يتخذ المؤمن منها نبراسا يتلمس به خير الأسباب للحصول على خير المسببات ومن ثم يتسم سلوك المؤمن بتقوى ربه فيما يقوم به من أقوال وأفعال أخذاً بهذه السنن الربانية فى اتباع المعروف والانتهاء عن المنكر .

ومن ثمرات تقوى الله حصول الفُرْقان ، وهو ما يفرق به المؤمن بين الصواب والخطأ ، ويميز بين الحق والباطل ، ويتبين الخير من الشر ، فالعلم الصحيح والقوة الموجَّهَةُ توجيها سليما والعمل الصالح والخلق الكريم والسلوك القويم ، كلها من آثار التقوى ويجلى الله بعلمه معنى الفرقان بقوله :

« يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا إِنْ تَتَّقوا اللّهَ يَجْعَل لَّكُم فُرْقَاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »[1] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما كان القرآن الكريم قد بين فى محكم آياته معنى الحق ومعنى الباطل ، وأسباب هذا وذاك ، سمى بالفرقان :

« تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً »(٢)

وجاء أمر الله المؤمنين بالتقوى فى أكثر من آية وبشتى الأساليب ومختلف المناسبات ، من تذكير بنعمة الخالق على خلقه ، وحق الأخوّة البشرية ، وصلة الرحم التى تربط بين بنى آدم جميعا :

« يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذّى خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها ، وَبثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثيراً وَنِسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الذّى تَسَاءلُونَ به والأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُم رَقِيباً »(٣) .

« إنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلاَلٍ وعُيُونٍ * وفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهونَ * كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتُم تَعْمَلون * إنَّا كَذَلكِ نَجْزى الْمُحْسِنينَ »(٤) .

والله الرحمن الرحيم إذْ ينصح بالحسنى ويبين للمؤمنين صراطه المستقيم ، قادر أيضا على أخذ العصاة الضالين بسوء العذاب بما قدمت أيديهم ، فى يومه المشهود يوم الحساب العسير لكل من ضل وعصى واتخذ الأعوج من السلوك :

« يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن والده شَيْئاً إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ »(٥)

« يَا أَيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عظِيمٌ »(٦) * يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَات حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ »(٧) .

(٢) وعلى من اتقى الله أن يطيع أيضاً حبيب الله ومصطفاه ورسوله سيدنا محمدا ﷺ ، وأن يمارس هذه الطاعة ممارسة عملية بتصديق الرسول الأمين فيما جاء به من وحى إلهى ومن ثم طاعته ، ولهذه الطاعة جانبان :

جانب المبلغ لرسالة ربه المبينة فيما أوحى إليه من آيات الله البينات ، وتتمثل طاعةُ المؤمن رسول الله الأمين فى إيمانه بما أنزل الله عليه ، وهو الرسول الأمين الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اختاره العليم الخبير من بين البشر أجمعين وحمّله أمانة البلاغ المبين ، كما لا يجوز لمن اتقى ربه مناقشة نصوص السُّنّة متى صح سندها وثبتت روايتها ، لأنه ﷺ الرسول الأمين الذى اتقى ربه حق تقاته ولذلك فهو لا ينطق عن الهوى ، علما بأن التصديق بآيات الله وسنة رسوله والتسليم بهما وعدم مناقشتهما لا يمنع مؤمن تقى من الاجتهاد فى دراستها ، لا عن شك فى النص ، بل من أجل الفهم والتبين والتبصر والاعتبار .

هذا جانب ، والجانب الآخر فى طاعة المؤمن للرسول ، هو جانب الإمامة والقيادة العامة الرشيدة للمسلمين فى تنظيم شئونهم ، وفى هذا حفظ للنظام العام واتقاء الفوضى بين المسلمين ، وهل هناك ماهو أرشد من إمامة رسول الله الأمين إلى الخلق أجمعين ؟ وهل هناك من البشر من هو أحكم من الرسول فى قيادته لهم ، هذا الذى لا يصدر منه فكر أو قول أو عمل عن هوى نفس ؟ إنما ينطق ويعظ الناس بما أوحى الله إليه ، ويبلغه للبشر بأمانة المبتغى مرضاة ربه وتقواه وحب الخير لإخوانه فى الدين وفى البشرية .

وما أصدق آيات الله فى وصف تقوى رسوله ﷺ :

« قُل إنَّما أعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثُم تَتَفَكَّروا ما بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُو إلاَّ نَّذِيرٌ لكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »(٨) .

«ما ضَلَّ صاحِبكُم وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُو إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى »(٩) .

« إنَّهُ لَقَولُ رسولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أمِينٍ * وما صَاحِبُكم بِمَجْنُونٍ »(١٠) .

(٣) وتقوى المؤمن نفسه هى أن يقى ذاته من شهوات نفسه ، والمؤمن التقى هو من اتقى نفسه الأمارة بالسوء فيتقى أهواءها التى قد تزعزع إيمانه وتعبث بضميره إذا ما أوتى مالا أو سلطانا ، ويحكّم عقله ودينه وإيمانه فى كبح جماحها إذا ما أوحت إليه بما يخالف ما أمره الله به ، ويعيدها إلى جانب الرشد ، ويطهرها بالمحافظة على العبادات التى تنهى عن الفحشاء والمنكر فتتطهر نفسه وتصفو ، وتصبح نفسا طيبة صالحة فلا يصدر منها إلا ما كان طيبا وصالحا ، وهذا هو الفوز المبين الذى يؤتيه الله عباده الذين آمنوا واتقوا شهوات النفس وأهواءها الضالة المضللة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٤) والمؤمن التقى من اتقى كيد الناس وما قد يلحقونه به من شر وضرر ، وذلك بالوفاق والتعاون والإيثار والتكافل والتعاطف بينه وبين غيره من الناس ، ومناط تحقيق هذه الآمال هى التقوى والعمل على إصلاح ذات البين بين ذوى الأهواء المتعارضة والأغراض المتنافرة ، وأن يكون عنصر سلام ووئام بين أخوته فى الدين وأن يصلح الناس بالعمل الصالح والموعظة الحسنة :

١ - فالوفاق فى الحياة الزوجية الذى يقوم على العمل بالتى هى أصلح ، والدفع بالتى هى أحسن ، هى بعُد المؤمن عن سلوك المسالك التى تؤدى إلى أسوأ النتائج ، ويبين رب العالمين خير سبل حل المشكلات الزوجية ، إذا ما استحكمت وتعذر على الزوجين حلها ، إذْ عليهم فى هذه الحالة التماس وسائل إحلال الوفاق محل الشقاق ، فينادوا من أهل الصلاح والتقوى من يصلح بينهما :

« وإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِمَا فَابعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِه وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً »(١١) .

٢ - كما أَمَرَ الله سبحانه وتعالى بأن يتقى المؤمنون وقوع شقاق فيما بينهم ، وأن يعملوا ، جاهدين مخلصين على الوفاق بين الطوائف والأحزاب بفض ما قد ينشب بينهما من خلافات ومشاحنات قد تشتد فتفرق بينهم وتذهب ريحهم جميعاً :

« وإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤْمنينَ اقْتَتَلوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأُخْرَى فَقَاتِلوا التى تَبْغِي حتى تَفِيءَ إِلىَ أَمْرِ اللّهِ فَإِنْ فاءَتْ فأَصْلِحُوا بينَهُما بِالعَدْلِ وأَقْسِطوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ(١٢) * إِنَّما المُؤْمِنونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»(١٣) .

ومن ثم يجب أن تكون التقوى هى الجو الذى يسود جماعة المؤمنين إذا ما اجتمعوا وتناجوا أو تحدثوا ، فيجب أن تكون نجواهم وحديثهم على الخير وحل المشكلات والتقارب والتحاب ، وإصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك من نجوى أو حديث عبثٌ لا طائل من ورائه .

« لا خَيْرَ فى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُم إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَة أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يفعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »(١٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمؤمن التقى لا يتوانى عن الإصلاح فى أى وقت وفى أى مكان يحل فيه ، ولا يقف من الأحداث موقف المتفرج الصامت ، وهو قادر على العمل ، ولا يقعد عن اتخاذ موقف إيجابى عملى فى الأحداث لاتقاء تفاقم الخلافات والمشاحنات بين أخوته فى الدين قبل أن تستفحل ويستعصى حلها بالتى هى أحسن ، ومن يفعل غير ذلك إنما يرتكب ، من حيث لا يشعر ، إثماً كبيراً ، وما الله بغافل عما يعملون ، وهو سبحانه وتعالى الذى يجزى هؤلاء الغافلين الجزاء الحق لأنهم بسلبيتهم مناعون للخير لأمة الإسلام ، والساكت عن الإثم ، مع قدرته على إزالته إنما هو آثم ، آثم فى حق الله وآثم فى حق نفسه وآثم فى حق أمته ، وما الساكت عن الحق إلا شيطان أخرس .

والأشد إثماً من الغافل الساكت ، هم من يوقدون نار الفتنة والعداوة والبغضاء بين الناس ، بدافع من غل يأكل قلوبهم واستسلاماً لحسد يقضُّ عليهم مضاجعهم .

ومن يظن خيراً آتيه من الوقيعة والدس بين المؤمنين طمعاً فى غنم يناله من هذا التباغض والتشاحن ما هو إلا أخ للشيطان وأداته الطيّعة فى ارتكاب الآثام وشق عصا الطاعة للخالق الجبار وإفساد فى الأرض ، وله من ربه أشد العذاب :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * ما أَغْنَى عَنْه مَالُهُ وما كَسَبَ * سَيصلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامْرأتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ »(١٥) .

ثانياً : البِرُّ :

البر معناه الوصل الطيب أى الإحسان فى العمل والتعامل بين الناس ، والمؤمن حق الإيمان هو كل من كان بارّا فى اتصالاته وفى قوله وفى عمله أى من كانت علاقته بغيره طيبة صالحة ومن كان فى سلوكه محسناً ، وإنما الدين المعاملة .

قال تعالى فى معنى البر :

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولَكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بالله واليَوْمِ الآخِرِ والمَلاَئِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائِلينَ وَفِى الرِّقابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا والصَّابِرينَ فى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أولئكَ الَّذين صَدَقُوا ، وأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون»(١٦) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »(١٧)

فليس من البر أن تطالب الناس بحسن العشرة وطيب التعامل ، ولست أنت على شيء منهما .

والإيمان في الإسلام لا يقوم على ظاهر العبادات وصُورها وأشكالها ، دون العمل بالقصد الحكيم من فرضها والبر في الإسلام لا يقوم على مجرد أداء فرائض الدين في الشكل دون الجوهر إنما الإيمان الحق هو ما قام على الاسترشاد بما أمر الله المؤمن بعمله وصدق المؤمن في فِكْرِهِ وقوله وعمله فالبر ضمير وإحساس وعمل ، ضمير حي وإحساس مرهف وعمل صالح وهو بذلك شديد الصلة بلب الأمور وحقائقها وبروح التكاليف الإلهية مع ظواهرها .

والبر بهذا المعنى ، وكما جاء في آيات الله البينات ، يتناول البر مع الله ومع النفس ومع الناس :

١ - البر في العقيدة : أي الإيمان بالله وباليوم الآخر وبملائكته ورسله وكتبه إيماناً صادقاً ومطلقاً ، إيماناً ينعكس في السلوك بما أمر الله ، لا مجرد حركات تمارس أو كلمات تقال ، والبر في العقيدة هو الإيمان الراسخ بوحدانية الخالق جل وعلا ، الرافع الخافض ، المعز المذل ، القابض الباسط ، وهو الله سبحانه وتعالى من لاتعنو الوجوه إلا له ولا تتجه القلوب إلا إليه ، ولا يستعان إلا به .

هذا الإيمان بالله الواحد القهار ، وبعظمته ، وبعدم الإشراك به ، وإسلام الأمر كله له ، هو الذي يرفع مكانة المؤمن إلى مكان التكريم والسمو الذي أراده الله للإنسان ليكون جديراً بإنسانيته .

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»(١٨) .

هذا الإيمان يؤمّن صاحبه من الذل والاستكانة لغير الله ، والله وحده هو القادر على أن يعصم عبده المؤمن من التورط والزلل ، وهو الذي يجعل من نفس المؤمن رقيباً عليه ، هذا الإيمان هو نبراس هداية المؤمن وتسديد خطاه ، به يهتدي إلى الحق في فكره وقوله وعمله وتعامله ، والإيمان بوحدانية الله يستوجب عدم الشرك به ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والالتزام بأوامره وحده لأنها وصايا العليم الخبير الذى لا يأمر إلا بالحق ولا يشاء للبشر إلا الخير والسعادة ، ومن يشرك بالله إنما يظلم نفسه وعليه وحده يعود شركه ، والله غنى عن العالمين :

« واعْبُدُوا اللهَ ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالْوالِدَيْنِ إحْسَاناً وَبِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ والجَارِ ذِى القُربَى والجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجَنبِ وابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتالاً فَخُوراً »(١٩) .

« يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »(٢٠) .

ومن آمن بالله وحده لا يذل لمخلوق فيحفظ له الله عزة نفسه وكرامتها .

ومن أسلم أمره لخالقه وحده لا يسأل غيره .

ومن أطاع الله ونفذ أوامره ، لا يخضع لمخلوق ولا يطيعه فى معصية .

وهذا هو الإيمان الحق الذى أراد به الله للمؤمن حفظ كرامته وإنسانيته وصلاحه وتقواه ، فهو لله وحده وبذاته :

« لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »(٢١) .

والشرك بالله سبحانه وتعالى يؤدى بالمشرك إلى الذبذبة وعدم الاستقرار والعجز عن أن يقطع بشىء من شئون حياته فيصبح نهباً لوسوسة الشيطان فيبوء بالكفر والخسران والبوار فى حياته الدنيا والعذاب الأليم فى حياته الآخرة :

« وَلَقد أُوحِىَ إلَيْكَ وإلى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ »(٢٢) .

« إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ افْتَرَى إثْماً عَظِيماً»(٢٣) .

ولا يقبل الله عذر من يشرك به ولا يشفع له قوله أنه إنما نشأ على دين أبويه :

« أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِن قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِم أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»(٢٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا ينجيهم من غضب الله وعذابه ، قولهم :

« لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ولاَ آباؤنَا »(٢٥) .

حقا ان الله لا يهدى من مرض قلبه ومن جعل الشيطان له وليا .

ومن البر فى العقيدة ، بعد الإيمان بوحدانية الخالق ، الإيمان باليوم الآخر :

يوم البعث والحساب والجزاء على ما قدم الإنسان فى حياته الدنيا ، ما ظهر منها وما بطن ، والله سبحانه هو وحده المحيط بكل شىء مهما كبر هذا الشىء ومهما صغر ، ما ظهر وما بطن ، يوم تجزى كل نفس بما قدمت إما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، يحكم بهما أعدل الحاكمين ، والبعث والحساب والجزاء معان تغرس فى نفوس المؤمنين الأبرار حب الخير وبَذْلِهِ للناس ، وكراهة الشر وتجنب الأذى .

وقد عنى القرآن الكريم عناية كبيرة بتقرير واجب الإيمان باليوم الآخر وناقش فيه ، وأقام لحتميته الحجج والبراهين ، وضرب الأمثال ، وسفه أحلام منكريه وتوعدهم بعذاب مهين :

«وَقَالُواأءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُون خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فى صُدُورِكُم فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهم وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ إن لبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً »(٢٦) .

والإيمان بوحدانية الخالق مع الإيمان باليوم الآخر هما قمة البر فى العقيدة ، فهما إيمان بالمبدأ والمَعادِ ، والبداية والنهاية ، وهما من غيب الخالق ، لا يحيط بهما العقل البشرى القاصر أمام تدبير الله وحكمته ، فضلا عن أن الفكر البشرى قلما يخلو من الهوى والشهوة ولذلك كثيراً ما يضل عن الحقيقة لأنه كثيراً ما ينحرف عن تبين الحق . فلابد من هداية هذا العقل المحدود من مصدر مطلق لا يُحدّ علمه ، ولا ترقى إليه الأهواء والنزعات ، وهو الله المحيط بكل شىء علماً مما نرى ومما لا نرى ، لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، دق هذا الشىء أو ضخم ، وهو سبحانه الذى استوى على عرشه الأعلى ، ومن تحته الكون بسمواته وأرضه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فما الذى إذن يصل بين الأعلى والأدنى ؟ لابد إذن من واسطة بين المصدر المطلق وبين خلقه أجمعين ، هذه الواسطة هى طريق معرفة الخلق لواجبات الإيمان بالخالق ومستلزماتها وباليوم الآخر ووسائل التجهز له ، وهذه المعرفة تأتى عن طريق ملائكة أطهار خلقهم رب العالمين ونزلهم بكتبه السماوية يوحى بها إلى من اصطفى العليم الخبير من بين خلقه وهم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله فى قومهم بنفس لغتهم ، حتى لا يكون للناس بعد ذلك حجة على الله ، سبحانه وتعالى ، بعد من أرسل إليهم من رسل .

فلا يمكن إذن الفصل فى الإيمان ، بين الإيمان بالله وبين الإيمان بملائكته وبين الإيمان بكتبه وبين الإيمان برسله ، فالإيمان بهذا كله هو البر فى العقيدة .

فليس من البر فى شىء القول بأن لا إله إلا الله فحسب بل البر هو أيضا فى الإيمان والتصديق بما يقوله الرسل الأمناء مما أوحى إليهم ربهم من كتبه السماوية عن طريق ملائكته الأطهار .

وليس من البر فى الإيمان أن ينطق الإنسان بكلمة الإيمان بشفتيه وقلبه خواء منه .

وليس من البر فى الإيمان التظاهر به أمام الناس ابتغاء منفعة دنيوية عاجلة أو خوفاً من أذاهم :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بالله وبِاليَوْمِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ الله والَّذِينَ آمنوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ »(٢٧)

وقد يزيد الله قلوبهم مرضا على مرض جزاء وفاقاً لخداعهم والتوائهم ، حى يفقدوا شعورهم بما يفعلون ويتبلد إحساسهم فلا يفقهون ما يعملون ، فيمعنون فى الفساد والإفساد باسم الإيمان ، والإيمان برىء منهم .

« وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * ألا إِنَّهُمْ هم المُفْسِدونَ ولِكن لاَّ يَشْعُرُونَ »(٢٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - البر فى العمل :

وهو الناحية العملية فى بر المؤمن ، ومرآة صادقة لما فى قلبه من إيمان بالله وباليوم الآخر وبما أنزل من كتب وبما أرسل من رسل ، وإذْ أمر الله بالإيمان بهذا كله إنما يأمر المؤمنين بالعمل بما يؤمنون ، وأن يجعلوا من إيمانهم دافعاً قوياً ووسيلة ونبراساً للعمل الصالح فى هذه الحياة الدنيا ، وأن الجدير بالمؤمن حقاً العمل بأوامر ربه التى أوردها فى كتابه الكريم ، وأن يصدق ويطيع الرسول فيما أوحى إليه من الله ، فلا يقول إلا صدقاً ولا يعمل إلا صالحاً ، وفى هذا وذاك - الخير كل الخير للمؤمن ولمجتمعه ، وأن يتزود المؤمن بعمله فى الدنيا لآخرته ، فيقابل ربه أبيض الوجه صفى القلب نقى الضمير ، فيجزيه الله ثواب ما قدم فى دنياه .

وأدوات البر فى العمل هى بذل النفس والمال فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وإعلاء كلمته .

والعقيدة بغير عمل إنما تكون عقيدة جامدة ، لا نفع فيها ولا غناء ، بل تكون معنى تنطوى عليه جوانب صاحبها دون أن تنعكس فى عمل صالح يشيع الخير والصلاح الذى أراده الله للمؤمنين .

والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للعقيدة الراسخة ، وهو الذى يحفظها ويعمقها وينميها ، وينمّ عنها :

١ - فالصلاة ، وهى أول مظهر عملى من مظاهر العقيدة ، وهى المظهر لمناجاة العبد لربه ، تنهى أيضا عن الفحشاء والمنكر وتوحى إليه بصالح الأعمال ، وهى العاصمة للمؤمن من الخوف والفزع ، وهى أداة فلاح المؤمن وصلاحه فى دنياه وآخرته .

« إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمونَ »(٢٩) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنونَ * الَّذينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ »(٣٠) .

فالصلاة الخاشعة هى الفارق بين الإيمان العميق والإيمان السطحى فالمصلى الخاشع فى صلاته لله وحده ، إنما يقف بين يدى ربه متجردا من مشاغل الدنيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومتجها ببدنه وقلبه ولسانه إلى خالقه مبتدئا «الله أكبر» فتصغر فى نفسه كل مظاهر الدنيا من متاع وزينة فلا تأخذه فتنة هذه الدنيا بالعدوان على الغير أو إهدار حقوق الناس أو التعالى عليهم ، ولا يسعى بينهم إلا بصالح العمل وحب الخير ، وهو فى صلاته الخاشعة تصفو نفسه وتعلو على ما يلاقيه من متاعب فيزاول عمله صابرا مستبشرا .

٢ - ومن أنبل مظاهر العمل الصالح وآثاره ، قتال المؤمن فى سبيل الله وبذله نفسه وماله للفداء والاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ومحاربة أعداء الله وأعداء العقيدة ، هذا العمل الصالح فى سبيل الله يتقبله الله أحسن قبول ، وينزل صاحبه عنده منازل الصالحين الأبرار .

٣ - البِرُّ فى الخُلُق :

وهى تحلى المؤمن بالأخلاق الكريمة والسلوك بما رسمه الله تعالى فى صراطه المستقيم ، ذلك السلوك الذى ينعكس فى صلاح المؤمن ظاهرا وباطنا ، صلاح فكره وقوله وعمله فى علاقته بربه وبنفسه وبمجتمعه ، فيرضى عنه ربه ويرضى عنه الناس ، ويفوز بمحبة الله وحب الناس ، وهذا هو الفوز العظيم فى الدنيا وفى الدار الآخرة :

« والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الجَنَّةِ غُرفاً تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فيها نِعْمَ أجرُ العَامِلِينَ »(٣١) .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٣٢) .

« والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ »(٣٣) .

ومناط البر فى الخلق القيام بالواجب والمقاومة :

ووسيلة المؤمن فى قيامه بواجبه الامتثال لأوامر ربه والعمل بما أنزل فى قرآنه الكريم ، وسلاح المقاومة هو الصبر ، الصبر على أهواء النفس وإلحاحها ، والصبر على معاناة مشاغل الحياة وأخطاء الناس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - فالقيام بالواجب يكون عن طريق تنفيذ أوامر الله والبعد عن نواهيه ، سواء فى تعامله مع ربه أو تعامله مع نفسه أو تعامله مع الناس ، وأوجب واجبات المؤمن حفظه كلمته ، والوفاء بعهده إذا ما عاهد ، لأن الوفاء بالعهد دعامة من دعائم الجماعة وتماسكها ، وبث الخير وتعميقه وتعميمه ، واستقامة الحياة داخل المجتمع واستمرارها وارتقائها .

وعهد الله إلى المؤمنين هو عهد الخالق إلى المخلوق وتكليف منه سبحانه وتعالى للمؤمنين بطاعته والتوجه إليه وحده وطاعة أوامره وإسلام الأمر كله له ، وعلى المؤمن الصادق الإيمان أن يفى بعهد الله ، وهو عهد بألا يعمل الإنسان إلا صالحا ، وبألا يقتفى الإنسان خطوات الشيطان أو يخرج عن طاعة الله ، وأن يفى بعهده ، فيهديه إلى صراطه المستقيم :

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(٣٤)

وقد عهد الله إلى أهل الكتاب بأن يقرُّوا ويصدقوا ويؤمنوا بما أنزل على رسوله ، خاتم رسله ، وأن يعملوا بما جاء فى قرآنه الكريم ، آخر كتبه للناس أجمعين ، وحملهم مسئولية الوفاء بهذا العهد :

« وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوْا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»(٣٥) .

ويأمر العلى القدير المؤمنين ، الذين عاهدوه على الإيمان بوحدانيته وقدرته ، بتصديق ما جاء به من عند الله رسولُه الكريم ، وبحفاظهم على هذا العهد ، وألا يجعلوا للشيطان عليهم سلطانا ، فلا يخونوا أمانتهم ولا ينقضوا عهدهم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٣٦) .

كما أمر العزيز الحكيم عباده المؤمنين بالمحافظة على العهد ، وأنْ يؤمنوا بقلوبهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن يعملوا بما يقولـون ، وإنّ فى حفظ المؤمن عهده وأمـانته ، فـلاحه فى الـدنيا والآخرة :

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تقُولونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ »(٣٧) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون » ، « والَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »(٣٨) .

وقد وصف ، سبحانه وتعالى ، الوفاء بالعهد بالتقوى ، أى أن من يوفى بعهد الله إنما يتقى غضب ربه ويتوب إليه ، وأن من لا يوفى بعهده طمعا فى منفعة عاجلة إنما يخسر كثيرا ، إذْ يخسر عفو ربه ولا ينال منه مغفرة ، ويخسر ثقة الناس به ، ويجلب على نفسه أكبر خسارة من حيث ظن أنه قد كسب .

« بَلَى مَنْ أَوفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »(٣٩) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ ولاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ولاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٤٠) .

فأين هم اليوم أولئك المتعاهدون الموفون بما عاهدوا ؟

أين هذا الذى عاهد ربه على البر والتقوى فى تعامله مع الغير ، ثم أوفى بعهده ؟

أين ذلك العهد الوثيق الذى يربط بين المصلحين أو بين العلماء ، إذا ما وهبهم الله ما شاء لهم من خير أو علم أو سلطان ، ثم شكر ربه ووفى بما عاهد أو تعهد ؟

أين ما تعاهدوا عليه من إعلاء كلمة الحق والبر بالنـاس وإصلاح حـالهم ، متعاونين ومؤثرين غيرهم على أنفسهم ؟

أين هؤلاء المصلحون الذين يمهد سابقهم للاحق بهم ، ثم يعترف اللاحقون بحق السابقين فيزيدونهم ويكملون ما بدءوا به ؟

أين منهم من لا يعمل جاهدا على هدم غيره تصغيرا أو تشكيكا بغير حق ، إعلاءً لشأنه بغير حق ، وجاعلا من نفسه نسيجا وحده أو أمة فى نفسه وحزبا برأسه بغير حق ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألا إن منهم من يفسد ظنا منه ظن سوء بأنه يُصلح ، ويخذّل ويضلّل بدلا من أن يهدى ويرشد .

أما عهود الناس بعضهم لبعض ، أو دولة لدولة ، فهى تتمثل فيما يحدث بينهم من اتصالات ومعاملات دنيوية كالعقود والالتزامات المالية وغير المالية ، وكلها واجبة الوفاء ما لم تكن فى معصية الله تضيع معها الحقوق وتستتبع أذى وفسادا .

وقد شبه الحكيم الخبير ، ناكثى العهد بالمرأة الخرقاء التى « نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » . كما أمر المؤمنين بأن تكون عهودهم قائمة على الصراحة والوضوح ، وأن تكون فى نصها وروحها صدقا فى الكلمة لا تلاعبا بالألفاظ ، وألا يلبسوا الحق بالباطل متخذين من الإيمان شعارا زائفا .

« وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٤١) .

كما حرم العزيز القادر استغلال قوى قلةً حيلة ضعيف عاجز ، سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الاجتماعى أو فى المجال الدولى ، وهو ما يعرف فى التعبير الحديث باسم المعاهدات غير المتكافئة :

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِى أَرْبَىَ من أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ ما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»(٤٢) .

أى أن تكون دولة منهما أكثر عددا وعدة .

٢ - أما مبدأ المقاومة ، فيقصد به قدرة الإنسان على التصدى والصمود والدفع لكل طارىء ضار بضميره أو بفكره أو بجسده ، وسلاح المقاومة الأول لكل طارىء من هذه الطوارىء هو الصبر ، ولذا أمر الله المؤمنين بالصبر فى جميع الأحوال بل لقد جعل ، سبحانه وتعالى ، من الصبر على المكاره قوة خارقة تعين صاحبها على التصدى والصمود للشدائد ومقاومتها بعزم وإصرار حتى يخرج منها بالفوز المبين .